الفهرس

الخطاب الفلسفي في الاسلام وظيفته الاجتماعية ـ التاريخية

محمد عابد الجابري .

« نحن والتراث : قراءات معاصرة لتراثنا الفلسفي »، عنوان كتاب جديد صدر للدكتور محمد عابد الجابري بدار الطليعة بيروت . يقع الكتاب في اكثر من اربعمائة صفحة ويضم مدخلا عاما خص المؤلف القسم الاول منه لشرح « مبادىء القراءة » ، التي يعتمدها منهجا ورؤية بهدف جعل تراثنا « معاصرا لنفسه على صعيد الاشكالية والمحتوى المعرفي والمضمون الايديولوجي . . . ومعاصرا لنا على صعيد الفهم والمعقولية ». أما القسم الثاني من هذا المدخل فيتناول الخلاصات التي خرج بها المؤلف من هذه القراءات والآفاق الجديدة التي ترسمها . فهي ليست خلاصات « خاتمة » بل خلاصات موجهة للمنهج والرؤية . وفيما يلي احدى هذه الخلاصات وهي تتناول طبيعة الخطاب الفلسفي في الاسلام ووظيفته الاجتماعية التاريخية .

« اقــلام »

. . . .

ثلاث خلاصات عامة يمكن الخروج بها من القراءات التى ننشرها هنا وهى تصلح لان تكون توطئة لهـا :

الخلاصة الاولى تتعلق بطبيعة الخطاب الفلسفى فى الاسلام ووظيفته الاجتماعية — التاريخية .

والخلاصة الثانية تتعلق بعلاقة هذا الخطاب بالفلسفة اليونانية وبكيفية عامة بـ «علوم الاقدمين» .

اما الخلاصة الثالثة فتتعلق بما يمكن ان يكون قد تبقى من هذا الخطاب ، اى بما عسى ان نجد فيه من عناصر او استشرافات تقبل ان نربطها بنا ويقبل عصرنا واهتماماتنا ان نربط انفسنا بها نحن العرب الذين نعيش على مشارف القرن الواحد والعشرين .

فالنبدأ بالخلاصة الاولى :

— 1 —

لا أظن ان فى تاريخ الفكر البشرى فكرا عانى ، وما زال يعاني ، من ظلم المؤرخين كالفكر الفلسفى فى الاسلام : لقد اعتبره المؤرخون القوامى (مؤرخو الملل والفرق) بضاعة أجنبية و « علوما دخيلة » فتحيزوا ضده واعتبروه ربيبا بل لقيطا . وتلك نظرة ما زلنا نجد لها اليوم «اشباها ونظائر» لدى بعض المؤلفين العرب المعاصرين الذين يستعيدون فى كتاباتهم صراعات الماضي فينخرطون فيها بوعى او بغير وعى ، ويقفون من الفلسفة العربية الاسلامية نفس الموقف الذى وقفه منها متكلمو عصرها متقمصين شخصية الغزالى أحيانا وشخصية ابن تيمية أحيانا ،

والقليل منهم من يقف موقف الشهرستاني المتكلم الهادىء . اما المستشرقون وتلامذتهم من الباحثين العرب ،فهم يعتبرونها مجرد امتداد للفلسفة اليونانية فى العصر الهيلينستي ، ناظرين اليها هم ايضا كجسم غريب معزول فى المجتمع العربى الاسلامي . وقد لا يتردد بعض هؤلاء المستشرقين فى ان يستعيدوا هم الآخرون، وبطريقتهم الخاصة ، صراعات الفكر العربى فى القرون الوسطى فيحكمون على الفلسفة الاسلامية بالهجانة والعقم متحسرين لعلم الكلام والتصوف . ولا تتميز ابحاث الكتاب اليساريين العرب الا بتقرير الاطروحات العامة التي يسترشد بها التحليل المادى التاريخي ، فيتحدثون تارة عن الصراع الطبقى وتارة عن « التواطؤ التاريخى » ، وتارة عن الصراع بين « المادية » و « المثالية » ، كل ذلك فى اطار خطاطات عامة لا تتعدى تقرير القوالب الجاهزة .

مواقف مختلفة المشارب متباينة الاهداف ، ولكنها واحدة بالنتيجة : عزل الفكر الفلسفي فى الاسلام عن محيطه الثقافى السياسى الاجتماعى ... الحضارى ، وبالتالي تشويه هويته ووظيفته وتحريف مسيرة تطوره .

ان تصحيح الوعي العربي بتاريخه يتطلب «اعادة الامور الى نصابها» داخل هذا التاريخ نفسه ، ومن جملة الامور التى يجب اعادة النظر فيها ، تلك التصورات اللاتاريخية التي كيفت الوعي العربى الراهن والتى تجعل من تاريخه تاريخ اجزاء لا تاريخ كل . ولعل اكثر «اجزاء» تاريخنا تضررا بسبب هذه التصورات ، **الفلسفة الاسلامية العربية التى مازال «تاريخها» يكتب خارج التاريخ الذى تنتمى اليه** ، وساهمت فى صنعه ، ان الفلسفة العربية الاسلامية التى عالجناها من قبل ككل وكوحدة اى كفكر يعالج اشكالية واحدة : كانت هي نفسها جزء من

كل وعنصرا فى وحدة . وليس هذا الكل وهذه الوحدة شيئا آخر غير المجتمع العربى الاسلامى فى القرون الوسطى بكل مكوناته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية . ففى اطار هذا الكل ومن خلال تناقضاته وصراعاته يجب ان ننظر الى هذه الفلسفة اذا نحن اردنا فعلا ان نكتسب تاريخها داخل التاريخ لا خارجه .

* * *

ـ اذا نظرنا الى الفلسفة العربية الاسلامية من خلال الوظيفة التى قامت بها داخل الكل الذى تنتمي اليه ، اى داخل تناقضات وصراعات مجتمعها وعصرها وجدناها خطابا ايديولوجيا مناضلا جند نفسه لخدمة العلم والتقدم وللدفع بالتطور الى الامام . ان هذا يعني ان خصومها كانوا من العناصر الرجعية والمحافظة ، اى العناصر التى كان من مصلحتها ــ مصلحتها القومية او مصلحتها الطبقية ــ الرجوع بالتاريخ الى الوراء .

يتجلى هذا واضحا منذ ابتداء الترجمة . ان عملية الترجمة كما تمت فى العصر العباسي الاول ، وعلى عهد المامون بكيفية خاصة ، لم تكن عملا «بريئا» ، اى عملا ثقافيا «محايدا» اقتضاه التطور ، بل كانت بالعكس من ذلك جزءا اساسيا فى استراتيجية عامة واجهت بها الدولة الجديدة ، دولة بنى العباس ، القوى المناوئة لها والتى كان على راسها الارستقراطية الفارسية الموتورة التي قررت استعمال الواجهة الايديولوجية بعد ان فشلت فى الواجهة السياسية والاجتماعية .

لقد ادركت الارستوقراطية الفارسية التى ركبت التشيع لـ «آل البيت» فى ثورتها على الدولة الاموية ، **ان السلطة**

فى المجتمع العربى الاسلامــى آنذاك هى بالدرجــة الاولــى الايديولوجيا. فالايديولوجيا (وهى هذا الدين الاسلامى) هى التى تصنع القــوة المادية : تخفف منَ الصراعات القبلية وتدفعها الى تجاوز نفسها وتقمع الصراعات الطبقية او توجهها وجهة خارجية (الفتوحات) . ولذلك قررت أن تخوض الصراع فى مصدر قــوة الدولة العربية ، اى فى المجال الايديولوجى ذاته ، سلاحها فى ذلك تراثها الثقافى الدينــى المبنى على الغنوصية ، اى على الايمان بوجود مصــدر آخر للمعرفة غير العقل هو «العرفان» او الالهام الالهى الذى لا ينقطــع بانقطاع الرسل انه «الوحــى المسترسل» الذى لا يترك اي مجال لا للعقــل ولا النقل .

هكذا شنت الارستوقراطية الفارسية الموتورة هجومــا ايديولوجيا واسع النطاق مستعملة [تراثها الثقافــى الدينــــى] الزرادشتــى ــ المانــوى ــ المزدكي ، والهدف هو التشكيك فى الدين العربى وهدمه وصولا الى الاطاحة بسلطة العرب ودولتهم. وقد تصدت الدولة العباسية الفتية لهــذه الهجومــات فشجعت المعتزلة وتبنت مذهبهم من جهة وعملت على استقدام كتب العلم والفلسفــة من خصوم الفرس التقليديين (الروم ــ اليونــان) وترجمتها ونشــر محتوياتها من جهة اخرى **ان «حلم» المامون ــ سواء كان حقيقيا او مصنوعا ــ لم يكن حلما بريئا ... لم يكن من اجل ارسطو ذاته بل من اجل مواجهة زرادشت ومانى.**

لقد تحددت وظيفة الفلسفة العربية الاسلامية ، اذن منذ ان كانت مجرد مشروع اى منذ ابتداء الترجمة . لقد اريد منهــا ان تكون سلاحا ضد الهجومات الغنوصية اى ضد الهجــوم الايديولوجى الذى كان يهدف الى ضــرب الدولة فى الصميم.

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كان منَ الطبيعى ان يثيــر تشجيع خلفاء بني العباس للمعتزلة ، وهو التشجيع الذى قلنا

عنه انه كان موجها فى الاصل ضد الهجوم الغنوصى ، كان من الطبيعي ان يثير ذلك التشجيع غضب اهل السنة خصوم المعتزلة وحنق الفقهاء النصيين ، وقد وجد هؤلاء واولئك فى الهجوم على «علوم الاوائل» والتنديد بالفلسفة غطاء يسترون به معارضتهم الحانقة للدولة التي تجندت لترجمة العلوم ونشر الفلسفة كما رأينا . وهكذا وجدت الفلسفة نفسها مضطرة الى مواجهة خصمين شرسين : الغنوصية (التصوف فيما بعد) والفقهاء واهل السنة .

وبما ان المعتزلة كانوا قد استطاعوا افساد أطروحات المهاجمين وتسفيهها بمنطقهم «الجدلي» الذي كان يعتمد على قياس الغائب على الشاهد ، الاسلوب الذى لا يمكن ان تصمد امامه المعرفة القائمة على «العرفان» ، وبما ان اولئك المهاجمين قد ادركوا ابعاد الخطر الذى يشكله عليهم استئثار خصومهم وحدهم بتوظيف «علوم الاوائل» ، فلقد احتموا بالتشيع مجددا ، ولكن بصورة مكنتهم هذه المرة من احتوائه ايديولوجيا لقد استنجدت الغنوصية هي الاخرى بـ «علوم الاوائل» (وبالجانب السحرى منها خاصة) ووظفتها داخل الفكر الشيعى الذى اتخذته مرة اخرى غطاء لها . فكانت الاسماعيلية ، وكانت رسائل اخوان الصفا . . لقد أصبح نفس السلاح فى يد المتخاصمين فبرز اهل السنة كقوة ثالثة بديلة . . . فكان الانقلاب السنى (على المعتزلة) فى عهد المتوكل ، وتركز الصراع بين معسكر «النقل» ومعسكر «العقل» ، بين القوى الرجعية والمحافظة صاحبة النفوذ والسلطة ، وبين القوى المعارضة ، القوى الاجتماعية

الصاعدة المتطلعة الى بناء دولة العقل والاخاء والعدل . ولقد كانت الفلسفة هى الناطقة باسم هذا المعسكر الاخير .

* * *

لم تكن الفلسفة فى المجتمع الاسلامى ترفا فكريا : بل كانت : منذ ميلادها خطابا ايديولوجيا مناضلا : كان **الكندى** ، اول فيلسوف فى الاسلام ، **منخرطا بشكل مباشر فى الصراع الايديولوجى** الذى كان محتدما فى عصره بين المعتزلة ، **ايديولوجيى** الدولة آنذاك من جهة ، وبين اهل الغنوص واهل السنة معا من جهة اخرى ، فناضل فى الواجهتين ، **ضد الغنوصية** بنشر خلاصات مطالعاته فى العلوم العقلية على شكل كراسات (رسائل) صغيرة مركزة قريبة المنال سهلة المأخذ تنقل الى القارىء العربى ، من الخاصة والعامة ، رؤى عقلانية عن الكون والانسان فى صيغة تحترم ثوابت الفكر الدينى الاسلامى ، من جهة ، **وضد الفقهاء** المتزمتين من جهة اخرى . هؤلاء الذين يصفهم الكندى بأنهم «اهل الغربة عن الحق» ، ناصبوا العداء للفلسفة «ذبا عن كراسيهم المزورة التي نصبوها من غير استحقاق بل للترؤس والتجارة بالدين وهم عدماء الدين لان من تجر بشىء باعه ومن باع شيئا لم يكن له ، فمن تجر بالدين لم يكن له دين ، ويحق ان يتعرى من الدين من عاند قنية علم الاشياء بحقائقها وسماها كفرا» .. ويقيم الكندى نوعا من التوازى بين الدين والفلسفة يجعلهما يسيران بتوافق وانسجام نحو هدف واحد هو «الحق» اى المعرفة الحقة الصحيحة بالله والطبيعة والانسان ، فيقول : «ان قول الصادق محمد، صلوات الله عليه ، وما ادى عن الله عز وجل ، لموجود جميعا بالمقاييس العقلية التي لا يدفعها الا من حرم صورة العقل ، واتحد بصورة الجهل ، من جميع الناس».

لقد دشن الكندي عملية « **تعريب** » الفلسفة وتبيئتهـــا ، عملية توظيف المادة المعرفية المنقولة عن علوم الاقدمين ، في الصراع الايديولوجي الذي خاضه المفكرون المتنورون فـــي المجتمع العربي الاسلامي في عصره والعصور اللاحقة له ضد القوى الرجعية والمحافظة التي لجأت من جهتها الى توظيـــف جديد الغنوصية (= التصوّف) والنصية (= الفقه لا الكـــلام) معـــا ، رغم تنافرهمـــا .

ويأتي **الفارابي** بعد الانقلاب السني على المعتزلة ، واثناء الانقلابات البويهية ـــ الحمدانية ـــ الشيعية على أهـــل السنة علي «الخلافـــة» التي اصبحت اسما بـــدون مسمي ، وفي وقت أخذت فيه الامبراطورية العربية في التفكك الى دويلات متنافسة متناحرة ، والصراع الايديولوجي يتشعب مع كثرة المذاهـــب والملل ، الشيء الذي كان **يهدد في آن واحد . وحدة السلطـــة واستمرارية الدولة** ومن ورائهما وحدة العقل ودوام المجتمع ... يأتي الفارابي ، اذن ، لينادي باعـــادة الوحدة الي الفكـــر والى المجتمـــع معا : **اعـــادة الوحدة الى الفكـــر** بالدعوة الى تجاوز الخطاب العقلانـــي المعتزلي ، التجريبي ـــ التجزيئي الذي فشل في التوفيق بين العقل والنقل ، والاخذ بخطاب «العقل الكونـــي» الذي لا يرى في الاختـــلاف بين الدين والفلسفة سوى اختلاف في طريقة التعبير : الاول يستعمل الطريقة الجدليـــة الخطبيـــة والثـــانيـــة تستعمـــل الطـــريقـــة البـــرهـــانيـــة ، ومن ثمة فـــالاختـــلاف يزول تمـــامـــا بدمج أحدهمـــا في الآخـــر على اساس أن «مافي الدين مثالات لما في الفلسفة» ، **واعـــادة الوحدة الى المجتمـــع** ببنـــاء العلاقات فيه على أساس من النظام والتراتب الهرمي شبيهين بالنظام والتراتب الهرمي اللذيـــن يسودان الكون بمختلف اجزائه . لقد ظهر لنا الفارابي من خلال القراءة التي قمنا بها لفلسفته السياسية والدينية في صـــورة

جديدة تختلف كليا عن صورة ذلك الفيلسوف الذى تحدثنا عنه كتب التاريخ . صورة جديدة تقدم انا الفارابى : لا منعزلا ولا منقطعا عن الناس تحت الاغصان وبجوار الاعشاب والمياه داخل غوطة دمشق بل منشغلا بمشاكل مجتمعه مثقلا بهموم معاصريه غير يائس ولا متألم ولا متضجر ، لقد كان الفارابى متفائلا يؤمن بالتقدم وبقدرة العقل على حل جميع المشاكل فعاش «المدينة الفاضلة» ، مدينة العقل ، مدينة النظام والاخاء والعدل فى حلم سخر فيه مختلف علوم عصره ، علوم العقل خاصة .

فلسفة الفارابي مشروع ايديولوجى وظل الفلسفة وعلومها لدفاع عن قضية . فعلا ، كان المشروع حالما ، بل كان حلما ... ولكنه كان ايضا خطابا عقلانيا مناضلا . فلنتساءل مجددا : «لماذا لا نرى فى الفارابى روسو العرب فى القرون الوسطى ؟

اما ابن سينا الذى عاش فى فترة بلغ فيها التمزق بالامبراطورية العربية مداه ، وفى احضان امارات فارسية الموطن والاتجاه ، وفى مناخ ثقافى علمي طبعه التنافس بين «المشرقيين» اهل خراسان عشيرته ، و «المغربيين» اهل العراق والشام ومن يليهم غربا من خصوم قومه التقايديين ، اما ابن سينا الذى خبر بنفسه ، ومن خلال وظيفته كوزير لاحد الامراء البويهيين مدينة الواقع ، مدينة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية القلقة المضطربة ، فلم يكن من الطبيعى ولا من المعقول ان يستعيد حلم الفارابي فى اقامة مدينة فاضلة على وجه المعمور ، مدينة العقل خاصة . نعم لقد تبني ابن سينا المنظومة الفيضية الفارابية ، ولكن لا ليوظفها فى المجتمع والتاريخ، ولو على شكل حلم ، بل ايتخذ منها قنطرة تنقله الى السماء

لـ «يحجـز» هناك لنفسـه ـ دون بدنـه ـ مقعدا فى «الدنيا» قبـل «الآخـرة» .

ذلك هو الوجه الآخر للشيخ الرئيس الذى انصرفنا بقراءتنا له الى ابـرازه ، الوجه الذى ترسمه له فلسفته المشرقية التى يعتبرها «الحق الذى لا مجمجة فيه» . لقد كان من الضـرورى ابراز ذلك **الوجه الظلامى الغنوصى** فى ابن سينا حتى نتمكـن من تصحيح صورته فى وعينا ونتعود على قراءة تاريخنا على نـسوء معطياته الفعلية ، لا تحت ضغط طموحاتنا الراهنة . ويجب الا نتضايق من هذا الوجه السينوى المظلم الذى يتناقـض تماما مـع الوجه الذى يرسمه له كتابه العظيم «الشفاء» ، فليس تراثنـا وحـده يجـر معه مثل هذه الوجوه المتناقضة ، بل ان عصرنـا الحاضر المطل على القرن الواحد والعشرين يزخر بمثل تلـك الوجوه ، داخل الوطن العربى وخارجه .

ومع ذلك ، فابن سينا ـ حتى فى فلسفته المشرقية ، فلسفة « الحياة الاخرى » فى الدنيا والاخرة ـ كان منخرطا فى صراعات عصره مناضلا عن قضية . ان مادعاه بالفلسفة المشرقية كـان بالفعل خطابا لاعقلانيـا ، ولكنه كان فى نفس الوقت خطابـا أيديولوجيا يشكل ، اذا نظرنا اليه من خلال امتداداته ، مشـروع فلسفة قومية (فارسيـة) . والمهم بالنسبة الينا ليس هذا الخطاب ولا دوافعه بل نتائجه : **لقد كرس ابن سينا بفلسفته المشرقيـة اتجاها روحانيا غنوصيا كان له ابعـد الاثر فى ردة الفكر العربى الاسلامى وارتداده من عقلانيته المتفتحة التى حمل لواءها المعتزلة والكنـدى وبلغت اوجها مع الفارابى الى لاعقلانية ظلامية قاتلة لم يعمل الغزالى والسهروردى الحلبى وامثالهما الا على نشرهـا وتعميمها فى مختلف الاوسـاط** ذلك هو حكمنا عنى ابن سينـا، أكبر فيلسوف واكبر طبيب انتجته المدرسة الفلسفية فى المشرق،

وهو حكم أصدرناه بدون تـردد ولا مراعاة للسائد من التصورات. لان ذلك فى نظرنا هو حكم التاريخ عليه ، التاريخ الفعلى الواقعى لا «التاريـــخ» المكتـــوب .

نعم لقد كان لابن سينا وجهان : وجه «الشفاء» و «النجاة» و وجه «الاشارات والتنبيهات» والرسائل المشرقية ، ومـــن سخرية الاقدار ان خصوم ابن سينا قد ضربوا احد الوجهيـــن بالآخر . لقد تبني الغزالى مضمون فلسفة ابن سينا المشرقيـــة فقدمها علي انها «المنقذ من الضلال» والطريق الي «احياء علوم الدين» فحاكمه باسمها وباسم الدين ؛ وصار حكمه هذا يتـــردد صداه فى فتاوى الفقهاء المتزمتين . لقد جعل الغزالي ومن ســـار علي دربه من ابن سينا الممثل الرسمي للفلسفة فى الاســـــلام مستندين فى ذلك على «الشفاء» و «النجاة» ساكتين عـــــن «الاشارات والتنبيهات» و «الحكمة المشرقية» ، فحاكموا الفلسفة فى شخصه ، وجعلوه متهما فى قضية كان بالفعل من أهلها ، قضية لم يحسن الدفاع عنها فى حياته، لانه تبنى طريقة خصومه المتكلمين فناب عنه هؤلاء الخصوم بعد مماته فى «الدفاع» عنها من خـــلال عرض «مقاصدها» وبيان «تهافتها» وتصديهم لـــ «مصارعتها» وكان ذلك احســـن ما فعلـــوا ..

* * *

فعلا ، لم تقم للفلسفة بعد الغزالي قائمة ، ولكن فقط فى المشرق العربى . اما فى بلاد فـــارس فلقد استمر التقليـــــد السينوى حيا ولا زالت امتداداته هناك الى اليوم تحمل معهـــا «الاصالة القومية» الفارسية بلغة أهلها بعد ان خرجت عن دائرة الفلسفـــة العربية الاسلامية لتدخل دائـــرة الفلسفة الاشراقية الفارسيـــة .

لنول وجهنا شطر المغرب العربي ، اذن ، حيث سنجد الفلسفة العربية الاسلامية قد «قطعت» مع اشكالية المشارقة لتتبنى اشكالية المغاربة (فى المغرب الاقصى والاندلس خاصة)، هنا ايضا ستواصل الفلسفة نضالها من اجل نفس القضية ، قضية العقل والعقلانية ، ولكن بعد ان تعيد طرحها من جديد ، بمنهج جديد وفى آفاق جديدة .

بدات الفلسفة العربية فى الاندلس تستعيد وعيها بذاتها ، وبالتالى دورها الطلائعى الريادى ، مع بداية «الثورة الثقافية» التي دشنها ابن تومرت وواصلها خلفاؤه من بعده . ان اعراض **ابن باجة** عن الفلسفة المشرقية السينوية وتجاوزه العرض الذى قدمه الشيخ الرئيس فى كتبه «الشفاء» عن «العلوم الفلسفية المنسوبة الي الاقدمين» ، ورجوعه الي «الاصول» الى مؤلفات افلاطون وارسطو .. كل ذلك كان بمثابة اعادة تأسيس للفلسفة فى الفكر العربى والثقافة العربية . لقد فشلت الفلسفة فى تحقيق حلمها فى المشرق ، وعليها الآن ان تبدأ من «الصفر» فى المغرب .

لقد عبر الفارابى عن طموح القوة الاجتماعية المتقدمة المتفتحة فى المشرق التى كانت قد قطعت على صعيد تطور الوعى وتطور المجتمع خطوات هامة نحو تعميم سلطتها وايديولوجيتها على المجتمع ، على الاقل فى حدود الامارات والدول المستقلة ، عبر الفارابى عن طموح هذه القوى فجعل المدينة الفاضلة ، مدينة العقل ، تضم معظم افراد المجتمع بوصفهم فضلاء كلهم اما الباقى اى الاقلية الضئيلة من **غير الفضلاء** فقد احتفظ بها داخل نفس المدينة كـ «**نوابت**» اى كنبات الشوك الذى ينبت هنا وهناك وسط حدائق الورد دون ان يغير من جوهر الحديقة شيئا . اما ابن باجة الذى عاش فى عصر استفحل

فيه نفــوذ الفقهاء المتزمتين ، فى المغرب والاندلس ، استفحالا جعل براعم اقوى المماثلة لتلك التى عبر الفارابى عن طموحها فى المشـــرق تميش فى عزلة وقلق ، فقد اعطى لمفهوم «النوابت» معنى آخر مغايـــرا تماما . ان المدينة الفاضلة فى نظر ابن باجة لا يمكن ان تكـــون الا كاملـــة اى خالية من «النوابت» لانه اذا وجدوا فيها ولـــو باعداد قليلة فسيتكاثرون ويعملون مع مـــرور السنين على تحويل تلك المدينـــة الى مدينة غير فاضلـــة بالمرة. ان «النوابت» فى رأى ابن باجـــة هم بمثابة ازهـــار الورد فى حدائق الشوك ، انهم العناصر الفاضلة فى المدينة غير الفاضلة ، العناصر الذين يهتدون الى ما فى هذه المدينـــة من الفســـاد ويعملون على اصلاحه ، ويتابعون ذلك على مر السنين الى ان تصبح مدينتهم فاضلة لا تضم غير السكان الفضلاء ، « فوجودهم — اى النوابت — هو سبب حـــدوث المدينة الكاملة» (ابن باجـــه : تدبيـــر المتوحـــد) .

لقد نظر ابن باجـــة الى مشروع الفارابى الحالم بعيـــن « الواقعية » التي املتها عليه اوضاع مجتمعه ، فعـــاش حلـــم الماضي ، حلم الفارابى ، كحلم للمستقبل ولكن بصـــورة اكثـــر «كمالا» . لقـــد افســـد «النوابت» مدينة الفارابى وتحـــول الفضلاء فيها الى غربـــاء (متصوفون) حرفوا معنى السعادة التى تعني حيـــاة الفضيلة المقترنة بالعلم النظـــرى الى معنى آخر هو «اللذة» التـــي يزعمون انها تحصل لهم بـــ «المشاهدة» . ذلـــك ما فعله الغزالى فى كتـــاب «سماه المنقذ وصف فيه سيرته وذكر انه شـــاهد عند اعتزاله امورا الهية والتـــذ التذاذا عظيمـــا ، ومما قاله : فكان ما كان مما لســـت اذكره ، البيت ، وهذه كلها ظنون واشياء يقيمها مثالات الحق ...» (ابن باجة : رســـالة الوداع) ، ان السعادة عند ابن باجة ليست فى هذا النوع مـــن «المشاهدات» المزعومة التى كرس الاعتقاد فيها كل من ابن سينا

والغزالى ، بل السعادة الحقيقية عنده هي بلوغ اقصى درجات العقل النظرى ، درجة العقل المستفاد التى يصبح العقل فيها مستقلا بنفسه غير محتاج الى مادة او محسوسات فى ممارسة فاعلياته وتشييد صروحه . انه العقل المجرد ؛ عقل الرياضى الذى يتعامل مع الكائنات الرياضيه بدون واسطة الحس ، او الخيال .

منذ البداية تنطلق الفلسفة فى المغرب والاندلس من رفض الطريق الذى سلكه بها فلاسفة المشرق . لقد استعاد ابن باجة وعى الفارابى ولكن بروح نقدية مما جعله اقل اغراقا فى الحلم ، وها هو **ابن طفيل** يتصدى فى قصته « حى ابن يقظان » الكشف عن «اسرار الحكمة المشرقية التي ذكرها الشيخ الرئيس الامام ابن سينا» بنفس الروح النقدية الواقعية فيربط تلك «الحكمة» باصلها المشرقى الحرانى بطريقة ذكية ، ويختم القصة بابراز فشل المدرسة الفلسفية المشرقية فى تحقيق مشروعها فى انشاء فلسفة يندمج فيها الدين ، ثم يقرر واقعنا يفرض نفسه وهو ان لكل من الدين والفلسفة طريقه الخاص وان كانا يلتقيان عند الهدف .

ان سلطة الفقهاء ومن ورائها القوى الرجعية والمحافظة فى المجتمع ما زالت قوية مهيمنة ، وسلطة العقل ومن ورائها قوى التقدم الصاعدة ما زالت لم توطد بعد اقدامها ، ودروس التجربة الفلسفية فى المشرق ماثلة امامها ، والوضع غير الوضع ، والاشكالية غير الاشكالية ؛ ولذلك فليس من « الحكمة » تكرار التجربة الفاشلة . ان الواقعية تفرض نفسها ، هنا فى المغرب والاندلس اللذين فرضا منذ البداية واقعا جديدا على دولة الخلافة بالمشرق ، فانشغلا بهذا الواقع بعيدا عن اشكالية وحدة السلطة (سلطة الخليفة) واستمرارية

الدولة (دولة الخلافة) . لا ، ليس «مافي الدين مثالاً لما في الفلسفة» ، فلا سبيل الى دمج احدهما في الآخر ، كل مايمكن فعله ، وهذا واجب الفلسفة ، هو اعادة بناء العلاقة بينهما لتظل «الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة» ؛ فهما «المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر» ، كيفلا ، وكل مهما حق «والحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له» .

ذلك مقال في المنهج جديد اسس عليه ابن رشد خطابه الفلسفي الاصيل . لقد بني فلاسفة المشرق خطابهم الفلسفي على «قياس الغائب على الشاهد» ، فقاسوا صفات الله على صفات الانسان ، ونظروا الى «عالم الغيب» بمنظار «عالم الشهادة» ، قاصدين «صرف الشريعة الى الحكمة» ، فأخطأوا الطريق واخطأوا الهدف ، وانتهت اقاويلهم الى احد امرين كلاهما فاسد : «اما رأى مبتدع في الشريعة لا من اصلها ، واما خطأ في الحكمة اعني تأويل خطأ عليها» فاساءوا الى الدين والفلسفة معا ، ففرقوا من حيث ارادوا ان يجمعوا .

لا ، ليس من الممكن دمج الدين في الفلسفة والفلسفة في الدين فالكل منهما مقدماته واصوله ، كل ما يمكن ، وهذا ما يجب عمله ، هو تطوير كل منهما من الداخل ، حتى يصبح العقل حاضرا في الدين وتصبح الفلسفة متفهمة للدين فيتجهان معا نحو نفس الحقيقة ، نحو المطلق حيث يندمجان في اللانهاية ... نقطة البداية في هذا المشروع هي تحرير الفلسفة (فلسفة ارسطو باعتبارها اكمل فلسفة) من الشروح الخاطئة والتأويلات المنحرفة والرجوع بها الى الاصل ، الى قراءة ارسطو بارسطو .. ذلك ما يجب العمل به في الشريعة ايضا : يجب نبذ اقاويل المتكلمين والرجوع الى الاصل ، واعادة بناء القبول الديني من داخله على اساس ان القرآن يفسر

بعضه بعضا . هنا أيضا يجب قراءة القرآن بالقرآن ... وذلك هو التأويل .

الخطاب الفلسفى الرشدى عقلانية نقدية واقعية . لقد تحرر ابن رشد ، معرفيا من هيمنة الجهاز الابيستمولوجى الذى كرسته فى المشرق مدرسة حران بكيفية خاصة والافلاطونية الجديدة بكيفية عامة ، وايديولوجيا من العوامل الاجتماعية — التاريخية التي صاغت حلم (المدينة الفاضلة) الفارابية و «الحكمة المشرقية» السينوية فاتجه الى معالجة الملاقة بين الدين والفلسفة بعقلانية واقعية تحفظ لكل من الدين والفلسفة هويته واستقلاله وتسير بهما فى اتجاه واحد ، اتجاه البحث عن الحقيقة .

انه جزء من خطاب عقلاني واقعي نقدى تميز به الفكر العربي الاسلامى فى المغرب والاندلس على عهد الموحدين ، خطاب كان هو الآخر مظهرا من مظاهر الصراع السياسى الصامت احيانا ، المتفجر احيانا بين مشرق الخلافة العباسية والفاطمية من جهة ومغرب خرج هو والاندلس عن سلطة الخلافة منذ بداية الدولة العباسية نفسها . ان الحذر في المجال السياسى يتحول الى نقد فى المجال الفكرى . ان الواقعية النقدية الرشدية لم تكن امتدادا لنفس النزعة لدى ابن باجة وابن طفيل وحسب ، بل كانت تتويجا لتيار نقدى ظل يتحرك فى اتجاه واحد اتجاه **(رد بضاعة المشرق الى المشرق)** فى الفقه مع ابن حزم الظاهرى ، وفى النحو مع ابن مضاء القرطبى وفى التوحيد (= الكلام) مع ابن تومرت وفى الفلسفة مع ابن رشد .

هل حقق الخطاب الرشدى حلمه «الواقعى» ؟

انه على الرغم من تحول رياح التقدم نحو اوربا حاملة

معها الخطاب الرشدى الذى سيعـــاد القاؤه هناك مرات ومرات لمدة قـــرون ... فلقد اثمـــرت العقلانية الواقعية النقديـــــة الرشديـــة فى موطنه ، المغـــرب والاندلس زهره واحدة على الاقل ما زال اريجها يحتفظ برائحته الزكية وروحه الرشدية الى اليـــوم: **انهـــا مقـــدمـــة ابـــن خلـــدون .**

لقد شاهد ابن خلدون ريـــاح التقدم تتحول الى بلاد الروم فاقتنـــع بأن زمن «الحلم» قد انتهى ، وان المهمة المطروحة «الآن» هى فحص الذى مضى ، لاستخلاص الدروس و «العبر» . وبالفعل فمقدمة ابن خلـــدون درس للعقل من العقل ، وعبـــرة للتاريـــخ من التاريخ . انها خطاب من الماضـــى الى المستقبل .

* * *

تاريخ الفلسفـــة فى المجتمـــع العربى الاسلامى هو تاريخ لحظتين فى وعى هذا المجتمع **اللحظة الاولى** تأسست ابيستمولوجيا على جهاز الميتافيزيقا الفيضية ، وايديولوجيا على دمج الدين فى الفلسفة فطغت فيها نزعـــة روحانية مثاليـــة جعلت القـــوى المتجهة الى المستقبل فى المجتمع تعيـــش فى الحلم ما اخفقت فـــى تحقيقه فى الواقـــع . اما اللحظة الثانية فقد انطلقت ابستيمولوجيا من نقدية ابن حزم وابن تومرت وايديولوجيا من الصراع السياسى بين دولة الخلافة الواحدة التى دمجت الدين فى الدنيـــا والدنيا فى الديـــن ، ودولة المغرب والاندلس التى كان وجودها فى حد ذاته يؤكد امكانية التعدد فى «الدنيا» فى اطار وحدة الدين .

ذلك هو المغزى البعيـــد لاشكالية الفكـــر الفلسفـــى فى الاسلام فى المشـــرق وفى المغرب . **واذن ، فلم تكن الفلسفة فى المجتمع العربى الاسلامى ، هنا فى المغرب او هناك فى المشرق،**

بضاعة اجنبيـــة ولا جسما غريبا بل كانـــت منه واليه ، عكست مشاكله وآلامـــه ، وحملت آماله واحلامه ، فكانت بالفعل ضميره.

(2)

ان الالحاح على ارتبـــاط الفكر الفلسفى فى الاسلام بواقـــع مجتمعه ارتباطا عضويا والنظر اليه ، تبعا لذلك ، كخطـــــاب ايديولوجى عبر عن لحظتين فى وعي هذا المجتمع ، لحظتى الحضارة العربية الاسلاميـــة فى المشـــرق والمغرب ، يطرح **مسألة العلاقة بينه وبين الفلسفـــة اليونانيـــة** . والامر لا يتعلق هنا باثبـــات او نفى تلك العلاقة ، فهذا ما سيكـــون الحديث عنه مجـــرد لغو ، وانمـــا يتعلق الامـــر اولا واخيرا **بتصحيح التصور السائد لنوعية تلـــك العـــلاقـــة** . . . .

طبيعة التصورات العلمية

سـالـم يفـوت .

فقط ركزنا فى المقال السابق(*) على الطابع النقدى والانتقادى للعقلانية المعاصرة ، غير أننا ركزنا على جانب نقدها للعقلانيات السابقة عليها بصدد مسألة محددة الا وهى مسألة العقل وطبيعته، وفى هذا المقال سنعمل على ابرز بعض صور نقدها للفلسفة التجريبية والاختبارية عامة باعتبارها فلسفة تريد أن تكون « فلسفة » الفكر العلمى الجديد ، لكنها تفعل ذلك لصالح النسق الفلسفى ، مدفوعة برغبة احتواء العلم ونتائجه لتبرير منطلقاتها الفلسفية الاساسية ، لا برغبة الانفتاح عليه وعلى قيمه المستجدة قصد استخلاص العبرة الفلسفية الحقيقية منها ، فالاختبارية تنطلق من أن المعرفة عامة تابعة للموضوع الواقعى ، وأنها فى أصلها عملية تجريد ، تقوم على تجريدنا من الموضوع الواقعى ماهيته ، أى أنها ، فى كلمة موجزة ، عملية انعكاس مرآوى

(*) أنظـر اقـلام العـدد : 1

نحذف فيها الجوانب الثانوية غير ذات القيمة الرئيسية • فالمعرفة هي صورة الموضوع الواقعي أو لوحة ينعكس عليها الموضوع الواقعي كما يقول فتجنشتين ، ومن الاحساس الى المعرفة يوجد اتصال ابستملوجي ولا يوجد انفصال او قطيعة • وموضوع المعرفة في رأى الاختباريين ليس متميزا أو مختلفا في ذاته تميزا أو أختلافا مطلقين من الموضوع الواقعي • وانطلاقا من ذلك تساوى النزعة الاختبارية بين صفتى الموضوعية والواقعية ، اى تعتبر ان كل ما هو واقعى موضوعى والعكس صحيح (1) • هذا على مستوى المعرفة عامة ، اما على مستوى النظر الى المعرفة العلمية ، فترفع الاختبارية مبدا قابلية التاكد ، كمعيار للحسم فى القضايا والتمييز بين ما هو ذو معنى وما هو غير ذى معنى ، اى بين الرياضيات كعلم صورى بحت ، وظيفته لغوية صرفة ، لا نتادى فيه الى حقائق جديدة ، وبين الفيزياء وغيرها من العلوم الواقعية، كعلم واقعى اختبارى نتادى فيه الى شىء جديد ، لكن ما نقوله فيه خالى من اليقين ، لان اساسه الاحتمال فقط • وما سنحاوله الآن هو ابراز الملامح الاساسية للانتقاد الابستملوجى توجهه العقلانية المعاصرة لا سيما مع بشلار للرؤية التجريبية والاختبارية خصوصا بصدد موقفها من مسالة طبيعة التصورات العلمية •

تنطلق العقلانية المعاصرة من نقد النزعة الاتصالية التى تعتبر المعرفة العلمية استمرارا للمعرفة الحسية العامية وان الفرق بينهما هو فقط فرق فى الدرجة ، درجة التطور والتعقد ، وليس فرقا فى الماهية • وهو انتقاد موجه أساسا ومباشرة الى النزعة الاختبارية التى ترى المعرفة العلمية أستمرارا للمعرفة الحسية ، وترد مختلف التصورات العلمية الى المحسوس وترى فيها صدورا عن الانطباعات الحسية • فهى ترجع كل التصورات الفيزيائية الى أنها نسخ التقطت عن طريق الحواس لموضوعات الطبيعة • ونقد العقلانية المماصرة يتخذ صورة تمييز بين

الموضوع الواقعى أو المعطى وبين موضوع المعرفة العلمية من حيث أن هذا الاخير ليس هو المعطى ، بل المعطى وقد أضيفت عليه الصبغة النظرية وتحول الى موضوع معرفة .. اى القول بان الانتقال من الموضوع الواقعى الى موضوع المعرفة لا يتم بشكل خطى متصل بل طفرويا نظرا لوجود قطيعة ابستملوجية بيـــن الاثنين تجعل كلا منهما فى استقلال بنيوى عن الاخر باعتباره ناتجا وحصيلة ممارسة خاصة به ، وقد أدى هذا التمييز الى نفى أن يكون الموضوع الواقعى يشكل المادة الاولى لموضــــوع المعرفة والى اعتبار أن المادة الاولى فى العلم مــــادة معرفيـــة أنتجتها الممارسة العلمية نفسها ، لهذا فهى مادة — مفعــــول معرفة اى حصيلة المستوى الذى يبلغه تطور المعرفة . فالعلم يتعامل بتصورات أنتجها العلم أنتاجا نظريا ، وليس وليدة انعكاس مرآوى ، وانتاج التصورات يتم داخل عملية سير نظرية لا تتحكم فيها سوى المعايير الخاصة بالعلم من حيث هو ممارسة نظرية ذات تاريخ فعلى مستقل عن ما عداه من التـــواريخ وان كـــان يتمفصل بها بصــــورة او باخرى .

لاجل هذا ترفض العقلانية المعاصرة المزاعـــم التجريبية ، محاولة فى نفس الوقت اعطاء العلم صورة لائقة به ، الا وهى الاكسيومية ، ومعنى كون العلم اكسيوميا انه غالبا ما ينطلق من تصوراته نفسها كى يصل الى الاشياء ، أى يتخذ من تصوراته المادة الاولى التى تفضى به الى الاشياء ، كما يعتمد التعاريف ، لا باعتبار هذه الاخيرة تقوم على ذكر خصائص الموضوع من حيث الجنس والخاصية النوعية ، بل باعتبارها هى التى تكون ذريعة للوصف وما يسمح بامكانه . فالتعريف يركب وينشأ عن طريقه تقوم الظاهر ، وليس العكس . واذا كنا لا نلاحظ هذه المسالة بكيفية واضحة وجلية جداً فى الفيزياء الكلاسيكية ، فانها تظهر بكيفية مكشوفة فى الميكروفيزياء حيث جميع التجارب تقوم على

مبادىء أو نظريات أفرزتها المعرفة سلفا واضحت بمثابة شروط نظرية للتجربة ولا مكانها ٠ الى حداثة يمكن القول بناء على هذا الاعتبار اننا فى الميكروفيزياء لا نعثر على الظـاهرة ولا نجدهـا وجودا ، بل نحن الذين ننشئها باستغلال المادة الاوليه فى العلم، اى ذلك العتاد المتحصل من الممارسة المعرفية السابقه ٠ فتعريف الالكترون مرتبط ضروره بوجود جزيىء آخر موجب الشحنة وهو البروتون ، حتى تكون القدره معدلة وهكذا ٠٠٠ اى ان وجود الكائنات الفيزيائية مشروط ببنيه نظريه محددة ، داخلهـا يلفى مدلـولـه ٠

لهذا ترتكز العقلانية المعاصرة على أن العلم يخلق ، عالما زاخرا من الموضوعات لا يستنسخهـا من الخبـرة او الادراك الحسى مباشره ، بل يركبها وينشئها ٠ وعليه تغدو الخبـرة ، كما يقول بشلار (2)، لا ينبوع معرفة لاينفذ ، بل ينبوع عوائق ابستمولوجيه تحول المعرفه ملزمه بتخطيها ٠ اى ان الوصف فى العلم يأتى حصيلة لتداول المقادير المجرده والرياضيه والقياس ، وجميع ذلك يمكننا من الالمام بالشىء لا الماما وصفيا ، بـل الماما طرائقيا ، باعتبار اننا بدلا من ان نبـرز خـواص الشىء لا الماما وصفيا ، بل الماما طرائقيا بعتبار اننا بدلا من ان نبرز خواص الشىء بوصفها ، نصف الطرائق الفكرية الكفيلة بتكوين تصور عقلى أو تعريف طرائقى يمكننا من تملكه معرفيا ٠ يقول برنشفيك : ((يصعب علينا الحصول على شىء يكون موضـع قياس ، قبل أن نكون قد اجرينا عليه القياس))(3) اذ أن المقدار المقيس ، لا يكتسب وجوده الا بفضل عملية القياس ٠ لهـذا السبب يلح بشلار فى ((الفكر العلمى الجديد)) على أن تصورات العلم هى وليدة علاقات ولا تقيم سوى العلاقـات ، ووجودهـا الواقعى يتجلى فى أنها علاقات ولا يتجلى بالرجوع الى التجربة ٠ وأن العلم يسعى أكثر فأكثر نحو سلخ الصفة المشخصة عن

المفاهيم واضفاء الصبغة العلاقية عليها • فمفاهيمه بعيدة جدا عن التجربة المباشرة ، وليست علاقيتها حاصلة بفعل عملية تجريد للشيء بل ان الاشيا نفسها تلقى العلاقــات من فوق • لهذا كله ، يكون مضمون التصورات العلمية ، ان جازت المجازفة بهذه العبارة ، مضمونا فوقيا ، أى مضمون معرفــة ، وليــس مضمونا شيئيا (4)• لذا فالتجربة فى العلم لصيقة بالتعريــف ، تعريف الوجود العلمى الذى نبحث عنه ، ومشروطة به • فهى تجربة مملاة سلفا من ضرورات نظرية عقلية • وكونها مشروطة يعنى أن طرائقنا وكيفياتنا فى البحث هى التى تلعب الدور الاساسى والحاسم فيها ، اذن فهى حاصل ممارستنا العلمية وناشئة عن طرائقنا المتبعة فى ايجادها والعثور عليها ومعرفتها • والملاحظ هنا، ان التركيز على طرائقية التصور العلمى ، يفترض أن هذا الاخير قابل لان يتكرر ، أى أن يكون أى شخص مؤهلا لتكرار نفس الطرائق والقيام بها دون أن يكون لديه ادنى شك فى انه سينتهى الى نفس النتــائج والملاحظات اللازمة والمترتبة ضروريــا عن التعريف ، تعتقد النزعة الاختبارية أن ما يضمن لنا تكرار الظواهر هو العادة فقط ، وليس الضرورة •« أن كل الاستدلالات التى نقيمها على الخبرة انما هى نتيجة العادة ، لا نتيجة التفكير العقلى، العادة اذن هى المرشد العظيم للحياة البشرية ، فهى المبدأ الذى يجعل خبرتنا ذات نفع لنا ، ويتيح لنا أن نتوقع فى المستقبــل سلسلة من الحوادث شبيهة بسلسلة الحوادث التى ظهرت فيما مضى •» (5)• هذه قولة لهيوم يمكن اعتبارها بمثابة القاعــدة الفلسفية الاساسية لفلسفة العلوم لدى الوضعيــة الجديدة ، وهى كما نرى تعتبر التكرار تكرارا تجريبيا لوقائع ، أو على الاقل الاعتقاد فى أنها ستتكرر نتيجة تعودنا على ذلك • أى تنفى الضرورة لتصنع مكانها العادة أو لتؤسسها عليها • وربما ترجع العقلانية المعاصرة خطأ نظرة كهذه الى انها تريد أن تبحــث

للضرورة عن ضمن وضمان فى التجربة نفسها وليس فى العقل نفسه من حيث هو ببيات منطقية — رياضية تعيد بناء التجربة وتركيبها وإضفاء الضرورة عليها . فهذا ، الابستملوجى الفرنسى المعاصر « جان ايلمو » (6) ينفى ان يكون التكرار ، كمقولة أو تصور علمى ، ينبع من الظواهر ، بل من تركيب هذه الاخيرة ، عن طريق معرفة جميع العناصر المكونة للتجربة . وفى هذا الصدد ينتقد النظرة الوضعية فى شخص « م.خ » التى تعتبر أن تصورات العلم وليدة ما يقوم به العالم من « جمع وتصنيف للوقائع المعطاة بشكل مفرد ومنعزل ، وايجاد الخواص البارزة فيها والمسترعية للنظر » (7). ويعتبرها وليدة تركيب وأنشاء شروط امكان تكرار الظواهر . فالتكرار ليس فى نظره تكرارا للوقائع الملاحظة او الظواهر ، اذ أن هذه الاخيرة ، يصعب علينا القول بأنها تتكرر بصورة منتظمة لا تعرف اختلافات ولو بسيطه ، كما ان الوقائع الطبيعية تبدو كل مرة تحت اشكال مبتدلة ومعقدة وفى ظروف متغيرة ومتشابكة ، بحيث يبدو الانتظام مجرد حالة مثالية . لهذا فعندما يتحدث العلم عن التكرار ، فى نظر ايلمو ، فانه يقصد به تركيب شروط التكرار تجريبيا ، أى تلك الطرائق التى بواسطتها يبعث العالم فى المختبر الانتظام فى الوقائع وذلك بخلق الشروط النظرية الكفيلة بمعرفة الظواهر معرفة أصدق . « ان تكرار التجربة معناه معرفة جميع العناصر الداخلة فى تكوينها ، والتاكد من فعل ورد فعل العوامل الداخلية والخارجية فيها ، وكل ذلك يشكل نهاية الدراسة العلمية وليس مبدأها »(8) .

فالتكرار ليس تكرارا فى الظواهر ، بقدر ما هو تكرار « ترنسندنتالى » يحصل عليه العالم بعملية تركيب اجرائية هدفها ليس البحث عن التكرار المظهرى فى الواقع ، بل عن العلاقات القابلة للتكرار التى عن طريقها وبفضلها تكتسب

الموجودات العلمية حمها فى الوجود العلمى ويريد أيلمو من هذا ان يثبت ان التصور العلمى وليد علاقة تظهر التجربه العلمية انها مثبتة للتكرار ، وان أساسه كتصور هو العلاقـة وليـس موجود او الخبره الفعل ، اى انه موضوع معرفة وليست نسخا لواقع ، كما يريد ان يهدم النظرة الوضعية القائله بأن العلم يصف الظواهر القابلة للملاحظة ثم يترجمها الى الفكر بواسطة النظريات والفروض دون أن يزيد عنيها جديد ، وهو ما عبر عنه ماخ بالقول : ((حتى عنوه يكون لدينا فرض يصف صنفا من الظواهر وصفا كافيا تمام الكفاية ، كصنف الظواهـر وصفـا كافيا تمام الكفية ، كصنف الظواهر الحرائية والميكانيكية به . أى اننا وضعنا مكان الوقائع الاساسية عددا مساويا لها من الفروض ، ومن البديهى أننا بذلك لم نجن اية فائدة (...) واننا لننخدع عندما ننتظر من الفروض أن تمدنا بتوضيحات أكثر من تلك التى تمدنا بهِ الوقائع نفسها))(9)، وايلمو يرد على هـذه المقولة . ان العلم لا يكتفى بتكرار الظواهر ولا يكتفى باقتصادها فى الفكر وتحويلها من كيف الى مقدار كمى مساوى له من حيث القيمة الوصفية ، وبأن العلم يريض الطبيعة وذلك بـانشـاء العلاقات الرياضية التى تمكنه من أن يتملك الواقع فكريا . ((لقد نشأ العلم الحديث عندما لـم نعـد مقتنعين بتلك التكـرارات التقريبية فى الطبيعة ، وقد لزم من اجل اضفاء الصورة الرياضية حسب الهدف الذى رسمته لنفسها الفيزياء النظرية ... التحلى بدقة اكبر اى العثور على ما هو قابل للتكرار وسـط تغـيرات لا منقطعة ، وقد كان ذلك هو المجهود الاول وربما الاكثر صعوبة، فى التركيب العلمـى .)) (10).

ويريد أيلمو أن يؤكد ، اعتمادا على أمثلة تتعلق بالطـرق العملية التى يسلكها العلم لابراز العلاقات بين القوة والكتلة والتسـارع ، ان التصورات العلميـة أسمـاء نشير بهـا الى

((وسائط))(11) أظهرتها لنا التجارب المنشأة والعلاقات القابلة للتكرار ــ التصور العلمي يشكل نقطة تلاقي وتقاطع مجموعـــة علاقات • كما يرى أن هذه النظرة العلاقية للامور تحل مشكلا من أعوص المشاكل التى صادفها العلم الا وهى تفسير طبيعة تصورى القوة والكتلة التى بقى العلماء منذ نيوتن نفسه حتى ماخ وكونت وغيرهم فيما بعد يعتقدون أن تعريف أى واحـــدة منها يقتضـــى الرجوع الى الاخرى وبالتالى اننا فى تعريفها ندور فى حلقة مفرغة أو دور فاسد ، دون أن ينتبهوا الى طبيعتها الاكسيومية • وان النظر الى طبيعة التصورات العلمية من زاوية اكسيومية ســـوف يسمح لنا حسب ايلمو: أولا ، من الافلات من النظرة المواضعاتية للعلم والتى تحاول أن تنشرها فلسفة بوانكرى للعلوم لاسيمـــا عندما تلح على اعتباطية التصورات العلمية (12) • وثانيا من الوقوع فى النظرة الوضعية التى ترجع نشأة التصورات العلمية الى الحدس الحسى ، ذلك ان من أهم الاسباب التى تركت العلماء يدورون فى حلقة مفرغة كلما حاولوا تعريف القوة أو الكتلة ، هو أنهم فى تصورهم لهذين المفهومين كانوا ينطلقون من اعتبارات حسية لها علاقة بالموقف العامى ، فهم يشبهون القوة والكتلة بالجهد والمادة فيعتبرون الكتلة مادة والقوة جهـــدا ، دون أن ينتبهوا الى الفصلة الموجودة بين الموقف العلمى والموقف العامى• فالاول ، أساسا ، فاعلية تقوم على خلق الشـــروط النظريـــة والتجريبية لتكرار العلاقات ومحاولة ادراك العنصر الثابت أو اللامتغير داخل زمرة من التجارب • فالعلاقات هى التى تاخذ بيدنا الى الوجود العلمى اى الى التصور ، ويصبح موضوعها الذى يفرض نفسه علينا كنتيجة ممـــارسة نظرية وتجـــريبيـــة موضوعية • (13)• لهذا يمكن القول بأن العلم يقيم فاصلا بيـــن الموضوعية والواقع الميانى ، باعتباره يلح على أن الواقع لا يكون موضوعيا الا بقدر ما تحوله عن طرق احكامنا العلمية الى موضوع

معرفة ، وهى عملية يعجز الادراك الحسى المباشر عن القيام بها مادام لا يعطينا سوى المعانى والكيفيات الحسية المشوبة بالاعتبارات الذاتية . فالموضوعى ليس هو ما يوجد باستقلال عنا ، بل ما تم صقله من طرف العقل لكى يحصل على تأشيرة الدخول الى ميدان المعرفة . الادراك التجريبى لا يمدنا سوى بنتائج القياس ، تلك النتائج التى حصلنا عليها باستعمال مفاهيم غير ذات مدلول مباشر . غير أن ما يعطى لجميع ذلك مدلولا علميا هو الحكم الذى نطلقه ، والذى هو حكم نقوم فيه باستخراج العلاقة الثابتة أو التلازم فى الوقوع الذى يبرز كل مرة وبشكل ضرورى والذى يؤدى بنا أيضا بصفة ضرورية الى ابتكار موجود علمى يتخذ من العلاقة مرتكزه . لهذا يخلق الفكر الموضوعات ، ويكون فى خلقه ذلك خاضعا لمعايير علمية لا يتحكم فيها هو ، بل تتحكم فيه . وهنا يظهر افلاس النزعة المواضعاتية لا تنفى عن التصورات العلمية كل ضرورة وموضوعية . فخلافا للاختبارية التى تعتقد أن التصورات العلمية كون وقائع اختبارية يصوغها عن طريق التجريد فى مفاهيم ، ترى العقلانية أن قياسات العالم نفسها هى التى تخلق التصور العلمى وتقود العالم الى الظاهرة أو الواقعة التى يشير اليها التصور . كمثال على ذلك التجربتان البارومتريتان اللتان قام بهما كل من توريشلى وباسكال ، فى تجارب توريشلى نحصل على علاقة متكررة بين كثافة السائل ومقدار ارتفاعه فى الانبوب خصوصا عندما نحدث فراغا فوقه ، وحاصل هذين المقدارين ثابت . ونلاحظ ان ما يشير اليه الوسيط الثابت فى هذه العلاقة هو شىء ندعوه « الضغط الجوى » . أما فى التجربة التى قام بها باسكال فاننا نحصل على علاقة أخرى متكررة بين مستوى الارتفاع فوق سطح البحر وبين انخفاض مستوى الزئبق فى الانبوب ، وهى علاقة ثابتة ايضا ثباتا يشير الى موجود يمكن أن نطلق عليه اسم « الكثافة الجوية » . غير

أن قيمة هذين الموجودين الجديدين اللذين لهما اسم واحد هو « الضغط الجوى » لاتقف عند حد الحصول عليهما نظريا وعلاقيا، بل كذلك فى قدرتهما على تطهير الميدان العلمى من رواسب الفكر غير العلمى المتبقى فى فلسفة أرسطو كالقول بأن الطبيعة تخاف الفراغ ، وهو تفسير يعجز عن شرح لماذا لا تخاف الطبيعة الفراغ بعد ارتفاع الماء عشرة أمتار (تجربة توريشلى) وارتفاع الزئبق 76 سنتمترا (تجربة باسكال).

ان الخلاصة الرئيسية من كل ما سبق هى أن العقلانية تنظر للتصور العلمى نظرة مخالفة لتلك التى تنظر بها اليه النزعة الاختبارية منذ أرسطو، وهذا ما عبر عنه باشلار بالقول : « إذا كان التصور التجريبى تصور تصنيف ، فإن التصور العلمى تصور تتقاطع فيه عدة علاقات وارتباطات متبادلة »(14)، وهو غير ثابت ، وذلك بفعل عملية التنقية والتصحيح الذاتيين اللذين يجريهما العلم على نفسه ، حتى تصبح تصوراته أكثر اقترابا من من الواقع وأكثر إملاء للموضوع ... « إن التصور العلمى هو مجموعة التسديدات الموجهة الى صورته الدونى »(15) متنقية التصورات ثم يسيران بالتقدم العلمى . وتلك من أخص صفات التبدل العلمى . على أنها تنقية وإعادة نظر ، تقتضيان وجوب التغيير الدائم فى المعلومات المكتسبة ، بل إصلاحها ، « وإن كل حدث فى الاعتبار هو طريق جديد نحو إعادة البحث ونظرة جديدة على الواقع بفضلها يمكن للمعرفة أن تغتنى خصوصا عندما نقوم بصياغة قانون جديد » (16) يكشف عن جوانب جديدة من الواقع لم يكن التصور السابق يسمح بكشفها ، مما يضفى على المعرفة العلمية تاريخية ، كما يضفى على الواقع نفسه لونا من التاريخية تتمثل فى تغيير محله باستمرار « لقد كان من الواجب أن تنفرد الوظيفة الواقعية باستقرار ما سواها ، ولكن الوظيفة الواقعية ، فى الواقع ، تأخذ بمزيد من الحركة . ولم

يشعر العلم فى أى وقت مضى بمثل شعوره باختصار الكائنات التى ابدعها .»(17).

لذا فالتصورات العلمية التى تعتقد النزعة الواقعية أن خلفها أشياء مجسمة ذات صفات كيفية محددة لا يعتبرها العلم سوى بنية رياضية معقدة بفضلها نتمكن من حساب الوقائع التجريبية والتنبؤ بها . لذا فالتصورات العلمية بعيدة عن أن تكون تصورات بالمعنى الارسطى للعبارة . انها نقطة التقاء علاقات رياضية انشئت من طرف الفكر كمرحلة من مراحل عمليات أضفاء الصبغة الموضوعية والطابع العقلانى على الواقع. واضفاء الموضوعية هذا على الواقع هو ما سميناه عملية تملك الواقع من طرف الفكر . وهى عملية مع انها تتم بكاملها داخل الفكر متخذة فى ذلك صورة أنتاج تصورات وتركيب علاقات تركيبا طرائقيا ، تجد تسويغها فى الواقع ، الواقع الفيزيائى وتتفق معه اتفاقا ترسنندنتاليا بمعنى ان العلاقات الجديدة تظهر لنا بجلاء جوانب علاقية أخرى من الواقع يعجز الحدس الحسى والملاحظة المباشرة عن ابرازها . ويأتى هذا العجز من كون المعرفة ليست « نسخا » للموضوع خلال عملية يبقى فيها الموضوع محافظا على استقلاله تجاه الذات ، بل تحويلا للموضوع وأعادة أنشاء له .. لذا فان الموضوعية ليست هى الوصف الموضوعى للشىء ، ومن الخارج ، بل هى تركيبه من طرف الذات وتحويله من موضوع واقع الى موضوع معرفة ، وذلك بالبحث عن بنية الرياضية العقلانية المعقدة . وما يضمن نجاح الرياضة فى ابراز نسيج الواقع ليس كون الرياضة لغة صورية بسيطة نضيفها الى المضامين الواقعية انعطيها قالبا صوريا بسيطا ، بل لان هناك « انسجاما تكوينيا » بين الرياضة والواقع الفيزيائى يتمثل فى كون الرياضة تكونت فى صورها الاكثر بدائية فى الممارسة الواقعية للانسان مما جعلها تتمفصل بها . ولا ينبغى ان يفهم من لفظة انسجام تكوينى،

انها مرادفة لتناسق والانسجام الاولى الذى تقول به النزعات القبلية الافلاطونية والكنطية ... والذى لا نجد جذوره سوى فيما وراء العالم وفيما وراء الممارسة الانسانية ان الانسجام التكوينى يجد جذوره وأصوله البعيدة فى مواءمة الانسان لانفعاله مع الطبيعة وفى تكيفه بها اى فى عملية تحويل الفكر للواقع منذ كان الفكر تاريخا ، كما يجدها فى كون الفكر نفسه نشا فى الواقع وترعرع داخل شروطه ، فكما ان الواقع نفسه هو مفعول طبيعة ، أى حاصل تكوين ونشاة طبيعية خاصة ، كذلك الفكر يجد أساسه فى هذا الواقع الطبيعى أى يكون بدوره مفعول ممارسة نظرية محددة بنظام من الشروط الواقعية كلها من مفعول الطبيعة . لهذا مهما بلغت الموجودات الرياضية من صورية واستنباطية فان ذلك لن ينزع صفة الواقع عنها من حيث انها موجودات تحصلت بفعل ممارسة نشات على تربة طبيعية . وهذا ما ينزع عن الموقف العقلانى من طبيعة التصورات الرياضية الشبهة المثالية .(18).

تنطلق النزعات الاختبارية من وجود فارق بين الرياضة والواقع ، الرياضة ذات طابع تحليلى صرف يقوم على الاستنباط العقلى ، أى استخراج ما هو متضمن فى المقدمات ، بينما الواقع ذو طابع اختبارى حسى . الرياضة علم صورى « ولا يملك العلم الصورى أى موضوع على الاطلاق ، انه نسق قضايا غير ذات موضوع ولا محتوى لها ، ودورها ، كما يقول كرنب (19) ، ولو كان الواقع الفيزيائى قابلا أن يتقبل الصبغة الرياضية ، فلماذا لانكتشف الموجودات الرياضية فى التجربة الفيزيائية نفسها ؟ ان فائدة التفكير الرياضى لا تاتى الا من كونه لغة بسيطة فارغة من أى مضمون تجريبى ومن اى دلالة واقعية . ويقينها ذاته ينبع من انها علم تحليلى لا يساعدنا فى كشف العلاقات الطبيعية

بين الظواهر ، بل يفيدنا فقط فى جعل أساليبنا وتعبيراتنا العلمية أكثــر سيرا وملاءمة .

يرى بياجى أن التجريبية والوضعية بتمييزها بين الرياضة وعلوم الواقع ، تصدر عن اعتقاد ينظر الى المعرفة كما لو كانت انعكاسا مرآويا للاشياء والظواهر على الذات التى تتلقاه دون أن تضيف اليه اية زيادة ، واكبر نقص ، فى نظر بياجى ، يطبع النظرة التجريبية هو عدم انتباهها الى أن الكائن الحى عــامة والانسان خاصة ذو اجهزة ، فى حين ان الوسط الطبيعى مجرد مجموعة من الظواهر ، دور الاجهزة هو تنفيذ الافعال ثم بالتالى تحويل الوسط الطبيعى قصد استيعابه والتــواؤم به وظيفيــا ونظريا . وهذا ما يؤدى الى ان تعدو المعرفة عملية تقوم بكاملها وفى جميع مستوياتها على علاقات التاثير المتبــادل بين الــذات والموضوعات . الا أنها علاقات تنمو فيها بالتدريج قدرات الذات النظرية والعلمية على التواؤم والاستيعاب . وينتج من ذلك ان معرفتنا بالموضوع لا تنتهى ابدا ولا تعرف حدا ، انها سلسلة من المقاربات المتتالية والمتعاقبة باستمرار . وانطلاقا من علاقــات التاثير المتبادل هذه ، بين الذات والموضوع ، تتخذ المعرفة سبيلين واتجاهين متعاكسين : اتجاه الادخال : وهو اتجاه أساســه الانساقات الداخلية الضرورية لجميع الافعال ولهذه التاثيرات المتبدلة ، ضرورية وتسمح بامكانها ، وهى انساقات يبرز لنا التحليل الارجاعى أسسها الموجودة فى البنيات المنطقية ــ الرياضية. من أين تاتى هذه البنيات المنطقية ــ الرياضية ؟ ان الطفل الصغير الذى نطلب منه أن يحصى لنا عددا من الكرات لا يقوم فقــط بملاحظة عدد هذه الكرات ، بل يقوم بعملية عــد واحصــاء ، وبالتالى ترتيب الاشياء المعدودة والمحصية ، وكلها عمليات تغنى معرفته بالموضوع ، وبالممارسة ، خصوصا عندما يشارف الطفل سن العاشرة ، تنفصل هذه العمليات عن مضمونهــا لتصبــح

عمليات بدون مضمون ، أى عمليات منطقية تجريدية ، يؤدى انتظامها على انحاء وكيفيات مختلفة الى ظهور بنيات جديدة منطقية ورياضية ، وهكذا الى ما لا نهاية ، ونشأة هذه البنيات الجديدة هو ما يسمح بتقدم المعرفة (20) . الاتجاه الثانى : هو اتجاه الافراغ الذى يتمثل فى ملاحقة الموضوع قصد معرفته تجريبيا ، وهى معرفة تتم بالبنيات المنطقية الرياضية التى عن طريقها ينشأ الموضوع من جديد ويمد تركيبه فى علاقات ، لذا فكلما تقدمت الرياضة ، تقدمت طرقنا المعرفية أيضا وأصبحنا مهيئين للكشف عن جوانب جديدة من الموضوع وذلك عن طريق ابراز علاقات أخرى لم نكن نعرفها من قبل . فتقدم العلم والمعرفة هو فى الحقيقة تقدم فى قدراتنا التركيبية واغناء لها ، أى تقدم وسائل للاستزادة من معرفة الواقع وازدياد امكاناتنا النظرية فى اعادة بنائه . وفى هذا يكمن — حسب بياجى — سر اتفاق الرياضيات والواقع الفيزيائى . والنقطة الرئيسية التى يلح عليها هنا هى أن البنيات الاولى التى تكون الاطر الاولية للعقل فى السنوات العشر الاولى من حياة الانسان والتى بعدها يكتمل نموه الذهنى والعقلى حيث يصير متوفرا على البنيات المنطقية الرياضية الكامنة لان تنتظم فيما بينها على انحاء مختلفة وتعطى تفكيرا رياضيا خالصا ، مشروطة سلفا بالواقع الطبيعى للانسان ، مما يجعلها محددة سلفا به ، وتتفق اتفاقا ترنسندنتاليا معه رغم ابتعادها التجريدى عنه (21). لهذا فاتفاق الرياضيات والواقع ليس يأتى من كوننا نجد الرياضيات فى الواقع بل فى انشائنا للواقع رياضيا ، وما يسمح بهذا الانشاء هو أن الرياضة محددة سلفا بالواقع وبالشروط الطبيعية . وكون الرياضة تتفق والواقع هو أنها تمدنا باطر انشاء وبنيات تركيب صادقة صدقا سابقا تساعدنا على ابراز العلاقات الجديدة فى الواقع . أى انها تخلق علاقات قمينة بأن تصبح شروطا نظرية ضمنها يغدو الموجود

العلمى ممكن الاكتشاف كما تغدو التجربة التى تسمح باكتشافه ممكنــه نظــريــا وتقنيــا .

وموقف بياجى هذا ، عرضناه كمثل عن الموقف العقلانـــى المعاصر من طبيعة التصورات الرياضية ، وان كان لا يخلو من بعض النقائص اذ وجهت اليه اتهامات حتى من طرف العقلانيين المعاصرين سيما الامتدادات المتأخرة مع فوكو والتوسير . فمــا يهمنا هنا هو ابراز الملامح الاساسية للموقف العقلانى المعاصر دون الدخول فى الاختلافات والصراعات الجزئية ، أى التركيز على ما هو مشترك ، وان كان ذلك على مستوى الابنية المعلنة ، وما هو مشترك هو ارادة اعطاء نظرة صحيحة للتصورات العلمية تتحلى بالمرونة والجدل والقول بانها حصيلة انشــاء وتركيب ، مادتها الاولى ليست بالضرورة الوقائع ، او الخبرة اذ « حتى بالنسبة لعلوم الطبيعة ، لا تنشأ تصوراتها اعتمادا على الخبرة : فبين الاحساس والعلم ، توجد قطيعة . والتجربة بعيدة عن ان تكون مجرد خضوع للطبيعة ، بل هى بالعكس ، الحاق للتجربة بعــالم المعــرفة » (22).

وتجدر الاشارة الى أن مفهوم المادة الاولى فى المعــرفــة العلمية يلقى ارهاقا معينا ، واعادة فى النظر تجعله لا يساوى بالضرورة ، لدى العقلانية المعاصرة ، الوقائع الاختبارية الغفل التى يتصور ان العلم يعمل فيها وبها .(23). المادة الاولى التى تعمل فيها المعرفة العلمية تتخذ صورا متباينة أشد التباين وفقا لدرجة تطور المعرفة عبر تاريخها ، فشتان مثلا بين المادة الاولى التى كان يعمل فيها أرسطو والمادة الاولى التى كان يعمل فيها غاليليو او نيوتن أو اينشتين . الوقائع نفسها تغدو مشوبة برؤى ومفاهيم علمية فلسفية وايديلوجية لها علاقة بالبنية المعرفيــة

السائدة ودرجة تطور المعرفة العلمية . لهذا فالتصورات هي حصيلة نقد التصورات وجماع الانتقادات الموجهة اليها ، وليست نسخاً لوقائع اختبارية .

هكذا تريد العقلانية المعاصرة التبشير بواقعية جديدة ، هي الواقعية الطرائقية التى تنطلق من الموضوع الواقعى وتعتبره مادة أولى أو معطى أولى ، بل من تركيب الشروط العقلية لامكان التجربة ذاتها وانشاء العلاقات الرياضية التى تسمح بالعثور على الموضوع الواقعى نفسه . لهذا فالعلم يبحث عن موضوعاته فيبينها ولا يجدها جاهزة . فى العلم تولد تجارب جديدة بالرغم من التجربة المباشرة ، كما أن الفكر العلمى تبطين للمعطى البسيط وقراءة عقلية معقدة له . لهذا يذهب بشلار الى أن هناك قطيعة بين الملاحظة والتجريب ، بوصف هذا الاخيرة « تجربة عالمة » وسؤال معرفى موجه الى الطبيعة . « بالنسبة للفكر العلمى ، كل معرفة هى جواب عن سؤال ، ولولا الاسئلة لما وجدت معرفة علمية ، اذ لا شىء يعطى من تلقاء نفسه ، بل الكل ينشا ويركب تركيبا »(24) والتجربة الاولية لا يمكنها بأى حال أن تكون سندا صلدا للانشاء والتركيب ، وان عيب النزعة الحسية فى نظر بشلار هو انها أرادت ان تكون فلسفة سهلة لا يتجشم فيها الفكر عناء الجهد الكشفى ، فى حين أننا فى النشاط العلمى ملزمون بالابداع وبالنظر الى الظاهرة من زاوية نظر جديدة ، فنحن لا نقيم تصورا الا بانتقاد تصور الاخرين لنفس الظاهرة ، وهو انتقاد يفضى شيئا فشيئا الى تحويل اعتراضاتنا وانتقاداتنا الى قانون أو تصور علمى ، ان الجسيمات والامواج ... التى اصبحت تزخر بها الفيزياء الحديثة لا تفيد ما تدل عليه هذه الالفاظ فى عالمنا الاعتيادى ، بل هى أمور ذهنية يعتمد عليها لايضاح خواص النور والمادة بالنسبة الى بعض التجارب . وانما ادى الى اعتبارها تطور الفيزياء الحديث ،

حتى أن العلم الحديث ابتعد عن كونه مجرد صـــورة مصغـــرة للظواهر وأصبح يشتمل على اعتبارات نظرية عقلية كثيرة ، كما أن التجارب أصبحت لا تتهيأ الا باعتماد مبادىء ذات ترتيـــب عقلى ، أى باعتماد فكرة منظمة . وان المفـاهيم الريـاضيـــة المجردة هى التى أصبحت تقدم أطر التحقيق والتجريب ، كمـــا أن التصورات الفيزيائية غدت بمثابة فرضيات لتنظيم التجربـــة عقلى اليها، ولهذا الاعتبار يبدو المستوى الرياضى الذى يحفز على طائفة خاصة من التجارب شيئا أكثر من مجرد أداة بيان ووسيلة ايضاح ، مثلما يريد « فتجنشتين » الذى لا يرى فى الرياضيات سوى « معادلات ، وهى أشباه قضايا ولا تقول شيئا »(25).

ان التركيز على طرافة التصورات العلمية وأجرائيتهـــا ، من طرف العقلانية المعاصرة ، لاهم ما يبرز ميلها نحو مناهضـــة الواقعية والاختبارية فى النظر الى الممارسة العلمية ، وانشدادها الى « واقعية تحويلية » او « واقعية عقلانية » او « عقلانية مطبقة » أو « مادية عقلانية » الاسماء تتعدد ، لكنه تعدد غير برىء ، يعكس عدم تحديد أصلى ، سنعمل على ابرازه عندما سننتقل فى المقال الخامس الى ابراز حدود العقلانية المعاصرة . يقول بشلار : « يمكننا القول بكل طيبة خاطر ان التفكير العلمى المعاصر يرتبط بواقعية تحويلية . فهو طبعا لن يكتفى بالواقع الموضوعى للفيلسوف الواقعى النزعة الذى يود لو لم تفلت من أمام ناظريه البشائر الاولية للوجود الواقعى ، بل يجرى على هذا الوجود الواقعى سلسلة طويلة من عمليات نزع الصبغة الواقعية ، الا انها عمليات تتسم باليقظة والاحتراس ، وتكون دوما جزئية ، لا تفضى به الى الوقوع فى النظرة الصورية للواقع التى تستهوى بعض الفلسفات المثالية . اذ من الناحية العلمية ، نجد أن نزع الصبغة الواقعية ، ليس يعنى الانسلاخ الكلى من الواقع كما أن عملية التحويل تتم بالبحث عن أمكنة غرس جديدة (...)

وان الجذور الجديدة للموضوعية لنعثر عليها فيما لا يــرى ولا يلمس ، اى فى تلك المنطقة التى اصبح يؤسسها العقل نفسه فيما وراء التجربة اى فى الميكروفيزياء . »(26).

* * *

تريد العقلانية المعاصرة ملء الهوة التى عمقتها الفلسفات التقليدية بين الفلسفة والعلم عندما حاولت البحث عــن القيــم الابستملوجية لهذا الاخير واعطاء نتائجه تاويلاتها اللازمة انطلاقا من انساق فلسفية مغلقة ، لا تتسم بنفس الانفتاح الذى تتسم به المعرفة العلمية . هذا بالضبط ما ارادت العقلانية ان تتجنبه . ويعكس موقفها من طبيعة التصورات العلمية نيتها تلك . انــه موقف يتحدد من خلال وعبر انتقاد المواقف الاخرى ، اى انه يعطى تعريفا لنفسه من خلال نفى المواقف الاخرى فى فلسفة العلم ، ومن خلال مواجهتها بكلمة ((لا)). وهذا ما اسميناه فى نهاية المقال السابق بطغيان النفحة النفيية ، وهو طغيان يعكسه التارجح بين الاسماء المتعددة التى تحاول العقلانية المعاصرة ان تحدد بهــا مواقفها ، وهو تارجح يعكس فى نظرنا عدم تحديد اصلى ودقيق فى اشكاليتها او على الاقل يعكس حدودها . وهو امر سنعــود اليــه فى ابــانــه .

الهــوامــش :

1 - Voir R. Blanché - La science physique et la réalité P.U.F. 1948 p. 40

2 - G. Bachelard Le nouvel esprit scientifique P.U.F. 1934 p. 30 et sq..

3 - L. Brunschvicg L'expérience humaine et la causalité phyisique Alcan - 1922 p. 555

4 - G. Bachelrd de nouvel. p. 30 et sq..

5 - D. Hume Enquête sur l'entendement humain Trad A. Leroy Aubier. 1947 p. 90-91.

6 - J. Ullmo La pensée scientifique moderne - Flammarion 1969 p. 25

7 - E. Mach La connaissance et l'érreur - Flammarion 1908 p. 307 cit par Ullmo p. 26.

8 - Ullmo p. 26.

9 - E. Mach La mécanique Herman 1904 p. 468 cit par Ullmo ibid

10 - J. Ullmo Les concepts physiques In logique et connaissance scientifique sous la direction de J. Piaget Ed. La pleïade p. 624

11 - J. Ullmo lLa pensée.. p. 30

12 - Voir H. Poincaré - La science et l'hypothèse Flammarion 1946 p. 126.

13 - J. Ullmo La pensée scientifique moderne p. 33-34

14 - G. Bachelard Le rationalisme appliqué P.U.F. 1949 p. 45

15 - G. Bachelard La philosophie du non P.U.F. p. 139

16 - J. Ullmo la pensé scientifique moderne p. 55-56.

17 - G. Bachelard - Le nouvel esprit scientifique p. 133

18 - J. Piaget Les données génétiques de l'épistémologie physique In Logique et connaissance scientifique p. 589 et sq...

19 - R. Carnap - Le problème de la logique de la science formelle et science du réel. Trad Français Herman 1937 p. 37

20 - J. Piaget - l'épistémologie génétique P.U.F. 1970 p. 87 et sq

21 - Ibid. p. 93

22 - J. Cavaillès - Sur la logique et la théorie de la science P.U.F. 2d édition 1962 p. 24.

23 - Voir L. Alhusser - Lire le Capital - Tome II Ed. Maspero 1970 p. 48-49

24 - G. Bachelard - La formation de l'esprit scientifique - Vrin 1972 p. 14

25 - L. Wittgenstein - Tractatus logico - philosophicus Trad. P. Klossovski - Gallimard. 1969 p. 62 63.

26 - G. Bachelard - L'activité rationaliste de la physique contemporaire P.U.F. 2d Edition 1965. p. 15

التنمية والتخلف :

المشكل النظري

عثمـــان اشقـــرا

مدخـــل

من الحقائق الثابتـــة والدامغة اليـــوم ان موضوع التنمية والتخلف اضحـــى ليس وحسب موضوعـــا يختص بطـــرحه السوسيولوجيون والمهتمون لكنه موضوع نزل الى الشـــارع (ان جاز التعبير) من فوق مكـــاتب الاقتصـــاديين ومدرجـــات الجامعات والمعاهد وتحول الى «شيء يومي» تتناوله الجرائـــد والاذاعات وكل الالسنة المختصة او غير المختصة . ويشيـــر جورج بلانديـــه Belandier في مادة تنمية في Encyclopedia الى أن جـــردا تقريبيـــا يظهر أكثـــر من عشرة آلاف عنـــوان يتعلق مباشـــرة باقتصاديات مجتمعات «العالم الثالث» .

ومن ناحية تاريخية ، فالبحث في موضوع التنمية (اقتصاد

التنميـــة) يمكن الرجوع بجذوره الى الاقتصاد الكلاسيكـــــــى (سميث ريكاردو وصولا الى ماركس) وهذا مايطرح عده مشاكل.

اولا تناول الكلاسيكيون موضوع التنمية فى اطـــار ظروف تاريخية تختلف جذريا عن الظروف التاريخية الجديدة التى يثار فيها اليـــوم نفس الموضوع بصدد الدول المسماة متخلفة .

ثانيا : ان التنمية كما بحث فيها السابقون ونظروها هى التنمية الراسماليـــة بشروطها وقوانينها المعروفة ، والســـؤال هو الى اى حد يمكن تعميم تجربـــة التنميـــة الراسمالية وكمـــا عرفتها انكلتـــرا وفرنسا ودول اوروبية اخرى فى حدود القرون الاخيرة – تعميمها على الدول المدعاة اليوم متخلفة ؟

ثالثـــا : ان كل بحث يقتضى استعمال نظريات ومفاهيـــم معينـــة (جهاز مفاهيمى معين) وكل نظرية او كل مفهوم لا تخرج الى الوجـــود من فراغ وانما يتـــم تشكله وتبلوره داخل مجال ثقافى وحضارى معيـــن وبالرجوع الى ((اطر استنادية)) خاصـــة Cadres de référence وهذا ما يطرح مشكل نسبية المعرفة الانسانية وحتى العلم الانسانى ، وبالتالى مخاطر قيام نزعات من نوع التمركـــز الذاتى الحضارى – تمركز ذاتى اوربى مثلا

رابعا : ان التمركز الذاتـــى الاوربى فى سيـــاق الموضوع الذى يهمنـــا (التنميـــة والتخلف) يمكن طرحه على صعيدين

الصعيد الاول ويهم الابحـــاث التى قام بها مؤلفون غربيون خاصة بصدد التنمية والتخلف فى ((العالم الثالث)) .

الصعيد الثانى ويهم كتابا وباحثين من العالم الثالث نفسه ، والسؤال المراد طرحه فى كلتا الحالتيـــن هو التالى الى اى حد يمكن الكلام عن وجـــود نظرية للتنميـــة والتخلف خالية الـــى

هذا الحد أو ذاك ((وانماها)) من نزعة Europeocentrisme هل يمكن ان توجد نظريـــة مثل هذه ؟ وما فائدتها ؟

ان الاشكالية التى نحاول طرحها هنا تمكن جوهر الكتابـــة السوسيولوجية فى العالم الثالـــث ، اصالة هذه الكتابة بمعنـــى صدقها ونجاحها فى التعبير عن وقائـــع اجتماعية وتاريخية هـــى فعلا وقائع بلدان ((العالم الثالث)) فى تعددها وتنوعها وليســـت وقائع بلـــدان ((المتروبـــول)) مختبئة فى طيات مفاهيم ونظريـــات تردد ببغائيـــا .

انه ــ كما اسلفنا القـــول ــ ليس ثمة من مفاهيـــم او نظريات بريئـــة . ان كل مفهوم او نظريـــة الا وتشتبك مـــــع العديد من الخيوط التى تشكل نسيج هذا الواقع التاريخـــى والاجتماعى بالذات ، ان المفاهيم والنظريات هى باختصـــــار ((وقائع تاريخيـــة)) . وهذا اذا كان يطرح مشكل نسبية المعرفة فهو يطرح ايضا مشكل اصالة هذه المعرفة ، الاصالـــة ليـــس بمعنى العـــودة الى اصل اسطورى او وهمى ، لكن بمعنـــــى العودة الى الواقع (بالمعنى الذى يعتمده مثلا التوسيـــر وهـــو يعيـــد ((قراءة)) الواقع وانتشاله فى تاريخيته وتعقده ضد هيجل طائفـــة من المركسيين ((الانسانيين)) .

ان المشكل النظرى الذى نريد ان نطرحه ونبرزه فى هـــذا البحث يمكن اختزاله ــ أخيرا ــ فى هذا السؤال : ما هـــى الشروط النظرية لقيام علم التنمية والتخلف فى ((العالم الثالث)) ؟ ونقترح ان نتنـــاول هذا السؤال بالتحليل استنادا الى الفرضيتين الرئيسيتيـــن التاليتيـــن :

الفرضية الاولى ، كل كتابة سوسيولوجية هى بالضرورة كتابـــة تاريخيـــة .

الفرضية الثانية ، الكتابة العلمية عن الظواهر ـ المواضيع لا تعنى عكس هذه الظواهر فى أمانة وحيـــاء (كتابة انعكاسية) بل هناك دوما تدخل للذات (العالــم) على صعيد صياغة المفاهيم واقتراح الفرضيات الهادفـــة الى شرح الظواهر فى اطار بنية فكرية كليـــة ومحددة فى آن واحد ، والمشكل هو حول مصـــدر هذه المفاهيـــم والفرضيـــات .

أ ـ الفرضية الاولى / كل كتابة سوسيولوجية هـــى بالضرورة كتابـــة تاريخيـــة

1 ـ تاريخيا نشأ علم الاجتماع (السوسيولوجيا) مصاحبا للمجتمـــع المدنى الذى تمخضت عنه الظاهرة الصناعية بأوروبـــا وتجسيدها الفكرى والسياسى : الثورة الفرنسية . كمـــا ان العلاقة غير منعدمـــة بين نشأة «العلم» الجديد ومجمـــــوع ظاهرات «مقلقة» برزت مصاحبة للوضع الجديد (قوى اجتماعية جديدة صراعات اجتماعية ...) ومحاولة جهات معينة السيطرة على هذه الظاهرات وكبحها اداتهم فى هذا هو العلم الجديـــد، السوسيولوجيا ، لقد كانت اذن للعلم الجديد منذ ولادته وظيفة اجتماعيـــة محددة . هذا من جهة اما من جهة اخـــــــرى فالسوسيولوجيا ككتابة (بالمعنى الحديث للكلمة) لا يمكن تصـــور بروزها بعيدا عن ارضية فكرية وفلسفية معينه . ان الزمـــن الذى كان ينظر فيه الـــى الحقيقة العلميـــة كشىء يمكـــن ان يتموضع بعيـــدا عن كل تأثيـــر تدولى . وهذا اذا كان يصدق فى مجال العلوم المسماة « حقة » فهو يصدق فى مجـــال العلـــوم الانسانيـــة اكثر : ان الفاصل بين «العلمى» «والايديولوجـــى» قد رق الى حد الانعـــدام .

2 ـ ان الكتابة السوسيولوجية ليس وحسب مرتبطـــة بالمجتمع الصناعى الرأسمالى ولكنها احد الوسائل الحاسمـــة

والهامة التى سيعتمدها هذا المجتمع اولا لحماية نفسه ضد تناقضاته الداخلية ((الهدامة)) وثانيا لتمديد سيطرته على الخارج. ان المجتمع الصناعى الراسمالى الذى تجذر ونما فى اوربا القرون الماضية القريبة لم يكن فى مقدوره ان يعيش بدون اراض واسواق خارجية يجلب منها المواد الخام ويصرف فيها بضائعه . وهنا ستتمخض الكتابة السوسيولوجية فتلد الاثنولوجيا الانثروبولوجيا وهما البنتان الشرعيتان الرأسمالية فى فترتها الامبريالية الاستعمارية والانتولوجيا والانثروبولوجيا هما انصع مثال تنكشف من خلاله ليس حقيقة المفاهيم والنظريات باعتبارها وقائع تاريخية ولكن — خصوصا — عمق التداخل بين السياقين الاجتماعى — التاريخى المعرفى — تداخل قد يصل حد التواطؤ .

الاطروحات المقدمة اعلاه تطرح مجتمعة مشكل بنية المعرفة ، وهذا المشكل يلزم ان ينظر اليه بالكثير من الحيطة والحذر والا وقع الفكر فى الكثير من المزاليق والمشاكل الزائفة. مثلا ، قضية الاصالة والمعاصرة ، الذاتية والخصوصية فى مقابل الشمولية والكونية . وهذه قضاية اذا كان لبعض ينظر اليها على انها قضايا زائفة وآخرون يعتبرون القضايا الحقيقة والاولى فهى قضايا على اية حال اسالت — وما تزال تسيل — الكثير من المداد ويبقى السؤال : ماذا نقصد بمشكل نسبية المعرفة ؟

لا نريد ان ندخل فى مناقشة فلسفية بصدد طبيعة المعرفة البشرية وحدودها وشروطها . ما يهمنا فى اطار الموضوع المطروح للنقاش فى هذا البحث هو توضيح المسالة التالية : كل كتابة سوسيولوجية تبرز وتنمو داخل مجال

ابستمولوجى محدد . وهذا المجال تتدخل فى تحديده الكثير من العناصر الداخليـــة (المحليـــة) والخارجية (العالمية) والمشكل هو:

اولا : مدى الوعى بحدود تدخل كل من العنصرين (ما هـــو وزن كل من العنصر المحلى والعنصر العالمى فى الثقافة القويمة مثـــلا) .

ثانيـــا : مدى القدرة الذاتية على التحكم فى العنصـــــــر الخارجى (والذى لا يمكن الاستغناء عنه) واعـــادة تكييفـــــــه (= هيكلته Restructuration) ليتلاءم مع المعطى الخام المحلى .

ان المشكل ــ اخيرا ــ هو فى مدى القدرة الذاتيـــة لـــدى مفكرى العالم الثالـــث (والمهتمين بشؤون التخلف والتنمية خاصة) على النفـــاذ عبر ركام المفاهيم والنظريات الذى يستعيرونه من الغـــرب ــ النفاذ الى الاسس النظرية والفكرية التى تقوم عليها هذه النظريـــات والمفاهيم . ان الاخذ من الآخر (مهما كان هـــذا الآخـــر) ليس بخطيئة الخطيئـــة هى الاخذ بدون وعى .

4 ــ والوعى المقصود هنا هو وعى الذات ووعى الآخر ــ الذات ليس باعتبارها نقيضا للآخر . الآخر ليس باعتباره نفيـــا ابديـــا للذات . ان الآخر (والمقصود هنا الغـــرب) شئنا أم ابينا هو فينـــا . وبالتالـــى فالمشكـــل ليس هو كيف تتخلـــص مـــن الآخـــر بقـــدر ما هو كيف السبيـــل الى اعـــادة ادماج الآخـــر (العلـــم الغربيـــات ــ الثقافة الغربيـــة) فينـــا . قلت اعـــــادة ادمـــاج بمعنى انه كان ثمـــة ادمـــاج اولى . وهذا الادمـــــاج الاولى قد وقـــع بطريقة فيها الشىء الكثير من القسرة والفجائية . ونقصـــد بهذا ما وقع فى فتـــرة الاستعمار والمـــد الكاســـح للثقافة الغربيـــة وقته . واذا كانت هذه الفتـــرة قد تميـــزت بالعديد من التوتـــرات التى بلغت ذروتها فى حركات ودعـــوات

رافضة لكل ما يتصل بالغرب من قريب او بعيد (الغرب المستعمر المستبد المستغل) فان الوقت قد جاء للتخلص من هذا الذى يمكن تسميته بعصاب جماعى سببه عنف اللقاء الاستعمارى والتخلص من هذا العصاب يعنى فى اول ما يعنيه ضرورة تصحيح علاقتنا مع الآخر ونقلها من وضع الدونية وملازمها الرفض المطلق الى وضع نحاور فيه الآخر حوار الند للند ، نحاوره خاصة نثقب جدار معرفته الذى يقدمه لنا مرصوصا ، واثق من شموليته واطلاق حقائقه . وهنا نصل الى الفرضية الثانية .

ب ــ قضية الموضوعية والذاتية قضية معروفة وقديمة . واذا كانت هذه القضية متجاوزة اليوم الى حد كبير فلان الفاصل بين الذاتى والموضوعى قد قارب الانمحاء . وعليه فالنشاط النظرى المتجه صوب فهم الطبيعة والمجتمع (النشاط العلمى) سيفقد الكثير من خصائصه القديمة وفى مقدمتها خاصية الانعكاسية ويكسب ميزة الفعالية والابداع . وبتعبير آخر ان العلم (والعلوم الانسانية خاصة) سيغدو نوعا من الصياغة النظرية لنماذج أو أنسقة ذات وظيفة تفسيرية بحتة . وكل نسق او نموذج يتضمن مجموعة من الفرضيات المحددة ونتائج تترتب عن هذه النتائج . ونجاح الانموذج او نسق يكون فى اتساق مجموع اجزائه وايضا ابرازه ابنية تنتظم داخلها مجموع العناصر المشكلة للموضوع المبحوث فيه . وعلى هذا الاساس فالعقل البشرى قد يحطم جدار السلبية القديمة الذى حشره وراءه طويلا الاتجاه الوضعى عامة ليكسب حرية وديناميكية وقدرة على الخلق : ان كل المعرفة الغربية ليست الا نموذجا او نسقا او بتعبير ادق مجموعة من النماذج الانسقة ، والمهمة بالنسبة للطليعة المثقفة فى العالم الثالث هى تفكيك هذه النماذج الانسقة وتسليط الضوء وعزل فروضها واشكالياتها ومحاورها الداخلية .

2 ـ والتفكيك هنا لا يمكن ان يتخذ الا معنى واحد : تفكيك بنيـة الثقافـة الغربية وردها الى العناصر المكونة لها بـدون اغفال العلاقات التى تشدها وايضا فحص هذه العناصر علـى ضوء الوقائع التى تتمثلها والاطار الفكرى الذى تشكلت فيه.وبتعبير آخـر : لقد حرصـت الثقـافة الغربية وما تزال تحرص على ان تقدم نفسها ككتلـة متراصة وكل موجه شامل من الحقائـق اليقينيـة والثابتـة ثبوتا قطعيا . وهذا بالطبـع مجـرد مظهروهم . والسؤال هو كيف يمكن تجاوز هذا المظهر ووضـع اصابعنـا على عناصر الصراع والتفجير فى الثقافة الغربية ؟ وهذا فى راينا لن يتاتى الا بتحقق الشرطين التاليين :

أولا : قراءة الثقافة الغربية قراءة نقدية واعية تهدف النفاذ الى الاسـس التاريخية والفكرية التى تقوم عليها هذه الثقافة .

ثانيا: مراعاة الواقع القومى فى جميع أبعاده (قراءة دياكرونية وسـانكـرونية بهـدف آبراز مكـامن الاصالة الخصـوصيـة ونحت المفاهيم او اعـادة هيكلتها . وهذه فى راينـا هى الشروط التى بدونها لا يمكن ان يقوم علم للتنمية والتخلـف فى العـالم الثالث ــ علـم اصيل وفعـال .

عثمـان اشقرا ــ خريبكـة ــ

في شمس الظهيرة

زاهـــــر الغـــانـــرى •

— 1 —

انت الآن مرتحـــل فى شــــوارع مطـــرح

خطــــوة

خطــــوة

ترتمـــى السلـــم الحجـــرى

الآن تنتثر الرطوبة فى ثوبك واليد النـــاحلة

خطــــوة

خطــــوة

على ساحل البحـــر تجلـــس ،

تبقى التحية للناس .

تندى اصابعك الرطبة

— 2 —

ثم تمسح فى وجهك الزرقة الذابلة

يمر الهنود النحيلون حولك

تقرأ فيهم سر انكساراتهم ، وانشحوب

يسر العيون السائلة

— 3 —

أعرف انك تشتهى التمر والقهوة المرة

أعرف أنك من قرية ، قد أتيت

تبحث عن عمل فى الظهيرة

آه .. السماء

السماء

السماء الكبيرة

أعرف أنك تشتهى ان تكون بلادك

وأعرف أنك . . .

لكنك تذكر صفعة الرجل الاجنبى على خدك

فى مكتب للجوازات

أذن أنت تشتهـــى التمر والقهوة المرة

ولكن بـــلاد النخيـــل

استباحها آرجل الاجنبـــى

تلقـــى نظـــرة للســـاحـــل

....

ثـــم تطـــرق

آه . بلادى التى علمتنى التهجـــى

بلادى التى أعبـــر ســـاحـــاتهـــا الآن

بـــلادى كلما نبتت زهـــرة

نصبت مقصلـــة

زاهـــر الغـــافـــرى

الى الشعب والوطن

تـوفيقـى بلعيـد •

العاشق : عندما ، حبيبتى ، تولدين : أخبىء عطرك الجنين فى
أغنية غجرية • اصنع أرجوحة ، لك ، من سنابل •
فى قلب وردة وحشية ، اطعمك الندى والشعاع وبقايا
ظلال وجنتيك باسراب البلابل • • واغنى لـك
انشودة البساتين والمطر •••

المعشوقة : بل عندما تولد انت ، وتزهر فيك أشواك الانسان
الكادح وجسارة المرء المكافح ، ويموت فيك الخـوف
والصمـت • • •

عنـدمـا تـولـد انـت

اهديـك حرفـا وحماما وسيف

أشحنــك حربا على الطغاة والزيف

وحواجز القهر والكبت

أزرعك فى أرض البغاة والحيف ...

عندما ، حبيبى ، تولد أنــت

ابذر فى قلبك حب الحياة والبسطاء ، وحيــن يأتــى ــ بغموضه ــ المساء ونفــك عن اقــدام السجنـــاء السلاسل والقيــود .

ازين راسك بالاشواك والورود البريه

واغلــف شفتيــك بالقبل الهمجيــه ...

العاشق : أصنع (من شــذا الازهــار

من روعــة الامطــار

من مهابة الانهار) فستانا شفافا لعريــك الابــدى وكليلا من أعواد الذرة الصفراء لشعرك ــ المساء وعقدا من محار ، العنق الشهى ...

الون وجنتيك من الغروب أخبىء قدميك بتربة النهــر الحمراء ، ابتنى ــ بين أغصان الوهم ــ عشا اليه أحملك بعيدا ، بالقدمين الوجنتين ، عــن أشــواك الارض ...

قبلة تطفىء نار الهوى الجامح فى عينينا . ضمة تشفى سقم السقم الوردى فينا ، حلم يطفح كاس امانينا ، نجمة تضىء ليل ليالينـــا ...

المعشوقة : عندما ، حبيبتى يشتد عودك ويكبر ، ويلسعك الشوك ويدميك الحجــر .

وترحل عن سمائك سحابات الامانى ــ الخادعات ــ والفكــر

تعرف انى الاصل والعيص وتودست السخيه ، المنبع والمصب وتسواطئك المهوبه الحزينه ، وانت المطــر والنهر وانا البحر والديمومه. النار والاحجار ــ أنت ــ والعنف والخشونة . وانا العذق والاحداق والعقــل وفى الاعماق تكمن الصلابة والليونة ، المهد والوديان ومرافئك الرزينة ، وأنت الجنون والصياح والريــاح والمراكب الحاقدة وانا الخيول الراكضة نحو الفجــر والمعاول التى تهدم ابراج العهــر ...

ــ كنت فى وحين ولدت ولدت فكانت بداية العشق فانتصبت ــ ضد الحب والفجر ــ مــدن التفتيــش والقهر فى الحقول والغابات التى تحمل أفكارى وسرى فانحنت السنابل تحت بطش المناجل وبقى الطين يناضل وحين جاء الصيف الاجر : هب الحقل يقاتل

وعندما كسرنا فى الليل حلقات السلاسل

هبت الاشجار التى لم تبع سرها ولم يجردها الحصار من حب الريح والنار واعراس الشــرار والتشبــث بالافكار التى قال عنها ((التتار)) : مستورده ...

نــزحــت

ــ الى منى وكنت فى تجوالــك تبكى

وكان الدمع رسـولا أتيـك منـى

التقينا ... فكان الدفء وكان الخصب وعلى جبينك زهر الشرق وحين سقطت أمطار العشق نمـا فى قلبنـا نهر على ضفـافه يحلم العشب وكان نجـم القطب فيه يستحم ، وكانت الاقمار والشمس ...

العاشق : وحين تموتين (نغمة النغم) وتصيب الكون صفرة السقـم

أحفر فى تربة الحقل قبرا ـ أسقى التربة بالدموع ـ أحيط المثوى بالعذارى وبالشموع وأرضه أفـرشهـا بجدائل التبغ الاشقر .. بجدائل التبـغ الاسـود ، أغطيها بالورود الناعسة اليابسة ..

أغسلك (اليوم لا ينشد العنب فى الكروم).. اغسلك بخمر الدوالى ولا أبالى بالنصوص بالشرائع . حبنـا فوق النصوص والشـرائـع ...

بلا بكاء أو صوت الصوت أضمك عارية فى مهد الموت نقتسم ـ اليوم ـ روعة التمدد فى التراب ودفء القبر والوصال الاول والاخير والتلاحم الذى لا يلد الانفصال

اضمك يازنبقتى الى صدرى ، انفخ الحنين . فى رئتيك الساكنتين ـ من انفاسى ـ حتى لا يجمـد صـدرك القمحى ـ يا حبى ـ ابدا ...

من حرارة الحب فى جسدى ، من حنان الحذان فـى يدى ، ادفىء أطرافك الباردة حتى لا يغطى العـالم الصقيع والشتاء المظلـم الدائم ...

أترك عينيك مفتوحتين لاقرأ فيهما أسرار الحياة وقوة الاشياء البدائية ...

أسدل شعرك فوق جبينك ، أسدله فوقى حتــى لا أنسى لغة النسيم ولون الليل وارتعاشة النهر ...

احتمى بصدرك حتى يلبسنى الحب والحنـــان ، حتى أتطهر وحتى يدركنى التحلل والتعفــن الذى يخصب الصخـــر . .

أتحسس أناملك الرموز ـــ الالغاز لكى أتقــن لغـــة الجذور وأصالة التشبث بالاوطان ...

المعشوقة : حين ياخذنى الموت ، وتكثر دوائر السيف والسوط شرارا فى رمـــاد الهــزائـــم امتـــد

وجمـــرا مع الايـــام اتجـــدد

أصبح الصدى والصوت ، وبالضوء ـــ فى عينيك ـــ اتـــوحـــد

حلم أنا فيك .. وفى صدر الاوطان فجــر الانســـان المغروس فى بذرة اليوم والغد وأنت فى الشعب القدر والفيض الذى لن يوقف زخمه أحد ...

عندما تدخلنى فى فصل الغيث والحب يأتى الـــربيـــع بالخصب والولادة

ويطلع الاطفال ، زرعا ، من رحم الشهـــادة

فيسقط عهد الذل والقتل والابادة

ويصبح للورد والندى الكلمة والقيادة ...

العاشق
والمعشوقة : وحين ينزل الظلام (ومن أقسى نسور الظلام اذ على صدور الاحرار تحط) تضمنا ارضنا المعطاء ٠ ٠ نتوحد .. نختفى .. نطلع زهرتين على ضفة نهر او غدير .. نستحم فى الندى .. نقتات الشعـــاع .. نتحدث النسيم .. نفكر الاريج .. نعطـــى بـــذورا جديدة لتستمر الحيـــاة ٠

القنيطرة ــ توفيقى بلعيد

مقاطع مهربة من روما الى روما

عبده جبران .

(1)

خذ
حصانك نحو المسافات
البعيده
قالت قبل الارتحال
واعطتني كتابا موشاة اوراقه
باصابع روما ينخرها السوس
والاهمال
ثم كانت قافلات الخبز
موصوفة بالسجن / مدججة بالماهات

متابعة بالشرطة والمخبرين
والكلاب وحانات التجسس
ووراقة الجنس
خذ حصانك نحو المسافات البعيدة
قالت
وصباحات الاستنفار آتية
من جبيرتها ، لتحول رأسى طلقة
ثم اعطتنى صورة ، كانت هى
موقوفة للريح / مصلوبة
فى انطلاق الخيل

(2)

سألتك
سبقة فى السبى . سألتنى أصنع
الاوساخ تحت سقوف الاعتقالات
فماذا تحت سقوف الاعتقالات
فماذا كان الجواب
وماذا كنت مراسيم الكتبة فوق الجراح .. ؟
هل تعلمين
كانت الفرحة عصفورا اعمى
كان الصمت والحقد
كان التسابق خلف الظلال ، وأجساد الخيل
باطلة .. والاكياس والقضبان واستدعاءات

دائـــرة الامـــن

كـان الليـل يطعـم رأســى ملحـا
ودمـا يـابسـا
ولن أرسـم رومـا بالسـواد
سحبا تقتى من كـل التواريخ المعلنـه
... وكـلاب الصيـد تسـابـق خلـف
جراحـى

آه ! أنـت يـا رومـا
هذه الصرخة المكتـومـة / هـذا الـوهـج
المصطفـى فـى الهـدنـه
منتهـاة بالاعـدام
مـوصـولـة بـأقلـب المترب
كالماء .. تاخذين صفاتى / لونى المشكل
بالجيـر
آخـذك للورقـة الاولـى
بيـن الشمس والقفـص
ولـن أرسمـك
للصـوص ورواد المقاهى وحراس
السجـون والملب الليليـة
فنـاريـة تكـره عـادات الانسـان
المستهلك للاشيـاء البراقـه
وتـرسـم خـارطـة لـك ... يـا رومـا !

مؤطرة بالفــرح الفــاصل بــين زمــانيــن
وآه !
منــك يــا رومــا اتشعــب / آلانســان
الــزاحــف فى عــرقــه
تعيديــن نفســك مرات ٠٠ ومرات محفوفة
بالجثث الصلماء والاحكــام العرفيــه
لــك راسى قيســاريــة الملــح
ولك المــوعــد حيــن يحضــر فى غرف التعــذيــب
وآه !
من عشقــى مختــومــا فيــك بالارتحــال
وآه ! من حزنى / من صبر نادية ترحل
نحوك بالعربــات مملوءة صفصافا / الماما صغيرة
ودمــى محــروقــة بالــرصــاص
وآه !
من نصفــى يبــدده فــائض القيمــه
مختصــراً بالعمــل المأجــور ٠٠ من حلمى يعلمنى
أن أبــدأ الاشيــاء بالنســف
وآه !
منــك تعيــدين نفسك مرات
ومــرات فى فخــار الاطلـــس
فى طهــــــــران
مشدودة لسوالف طفلات الانتفــاضــه
تبحثيــن عن آلانســان الموحد فى فرحته / عن

كلمات مرتلة بالشهادة
ولك المبدء والاضراب والساحات
والمنشور الموقع بالعشب والطرقات البعيده ،
والتعبئه
فماذا كانت حصيلة قتلى
وماذا كانت مؤامرة الوقت ضدى
هل تعلمين
كان السفر
كانت الخيمات منصوبة فى صدرى
كان المطر الازرق
كانت سيارات الاسعاف ــ رجال الجمارك
الهلال الاحمر ــ الهيئات ــ القتله
وكانت صرختى فى اعلانات الصحف
فى الملصق
والناس تفر / توقفها
الاسلاك الكهربائيه
هل تعلمين
لن ارسم حلمى ثانية
الا عند حدود البنادق

(3)

آه !
من لحظتى

(4)

.... كـــانـــت

رومـــــا تـــدمـــر رومـــــا

والانســـان ياكـــل بعضـــه

والبحـــر يرتـــل أحـــزن أناشيـــده

(5)

هل تعلميـــن

كـــانـــت الحـــرب

والتنـــاقـــض والثورة والمنشـــور

والانسان المولود فى الخيمه

والارتحـــــــال

ولـــن أرســـم حلمـــى ثـــانيـــة

الا عنـــد حـــدود البنـــادق

عبـــده جـــــــــيران

البكارة

قصـــة قصيـــرة

هناوى أحمـــد

رأيتك تدخل كوخك الخشبى مقطـــب الجبين ، خـــاوى الوفاض . يمناك تحمل قفة فارغة .. من يسراك تتدلى «كوميرة» صفراء يابســة مثل العصى . الشوارع التى عبرتها ، والازقة التى اجتزتها ، والنوافذ التى سرت تحتها ، الرجال ، النساء ، الاطفال ، السيارات ، القطط ، الكلاب ، الذباب ، المبوليس ، المقدمون ، شاحنات الازبال ، البغايا ، شبـــاب السيلسيـــون والسيراج ، باعة الخضر المتجولون المطاردون من درب الى درب .... مسحوا فيك ظلالهم ، كأنك جدار .. كأنك عمود كهرباء . قفزوا فوقك وانت تسير فى طريقك الى البيت لاويـــا ، ذابلا ، حزينا .. كمن يمشى شخصيا وراء نعشه ، تحاصر نفسك بقفة فارغة . والعصى اليابســة المستنفرة الصفراء لا تملك ان تكون غير ما هى .. عبثا تتعب ، عبثا تتمناها ان تتحول الى عصى

موسى . الارض هى الارض ، والسماء هى السماء . الحـد الفاصل بينهما بعد مستقر ثابت على حاله ، فأنك لست حزينا ، ولست مطلوبا ، ولست مصادرا من آخر شعرة فى رأسك ، الى آخر خط فى باطن رجليك ، والطاقة ثمينة ، وانت مطـالب بالحفاظ عليهـا !

اطفالك الستة ، لم يناموا بعد ، ولو ان المساء انقضـى ثلثاه ، ولو أن العيون الصغيرة لا تقوى على مقاومة الساعات الليلية الاولى ، ولو أن القدور ، جميع أقدور يفترض ، نظريا ، أن تكون قد افرغت من محتواها قبل هذا الوقت بكثير .

وماذا حملت لهم ؟! تدخل مغلفا بالظلام ، مقطب الجبين ، خاوى الوفاض ، محاصرا ذات اليمين وذات الشمال بالفراغ .. القطة البيضاء منزوية فى ركن ركين ، تغالب الجوع ، بياضها لا يكاد يبين وسط القتامة . الستة يتململون وقوفا دفعة واحدة ، كأنهم شدوا الى بعضهم بشريط ، كأنهم مخيطون .. حملقوا فيك طويلا ، ازدردت عيونهم جوف القفة واللون الاصفر اليابس . لم يقولوا كلمة واحدة ، اكتفوا بتصعيد آهة عتيقة ، صرخة بكاء مدوية انفلتت من أعماقهم ، وعادوا الى قبورهـم علـى الحصير الوضيع ، كما لو أنهم أدوات مهمة محددة .

احترت كثيرا فى تفسير ما بدر من اطفالـك الستـة .. أيكون ذلك احتجاجا ضدك ؟ ضد تأخرك كل هذا الوقت ؟ ام ضد القفة الفارغة ؟ ام ان الاحتجاج منصب على الشبـح الاصفـر الواقف فى الفراغ ثعبانا أصفر جائعا ؟ أنت لا تعلم أكثر من أن اطفالك ولدوا فى زمن الاحتجاج .

حاولت زوجتك سدى أن تتهم الهزيمة المستطيرة التى منيت أنت بها . حاولت أنت بدورك أن تجد مبررا لفشلـك طـوال اسبوع فى جلب ربع كيلو لحم وقليل من الخضر لبيتك الحزين

المتضور . من غير أن تشعر قفزت من عينيك باردة ينابيع دمع شبيه بترياق الموتى ! ايكون للرجولة معنى ؟ أيكون للابوة معنى حين تظل لقمة العيش خارج اليد مع سبق الاصرار ؟ أيكون للوطن جلاله وأمثالك فى حل من فيئه ودفئه ؟

ادرت زر الاذياع ، لعل أخبارا جديدة تاتيك من رمال الصحراء ، عن اخيك وصهرك المغروسين هنالك فى الفلاة فى وجه الثمانين السامة ، والهجر المكثر ، جدارا سميكا . يحمون بصدورهم الشمس التى تمنحك ضوءا ، والارض لم تمنحك ماء ، والرئة التى لم تمنحك هواء . نشرة الاخبار على ابواب اذاعة الرباط . ولانك مهووس مفتون بالسياسة — الضد ، عرجت على راديو اجزائر ، فلموجاته السنة مغرمة بحبك الاساطير ونفخ الفقاقيع ، معارك السمارة ما زالت طرية ، دماء السمارة لم تيبس بعد على الرمال ، وفوق سيارات لاندروفير المحطة . اسندت أذنك اليسرى الى موجة « مخرب الشعوب » ، فمثلك يميل الى ركوب الريح الشمالية أنى كان مصدرها ، وانت ، انت بالذات ، تعبت من ركوب اليمين ، لك مع اليمين تجارب قاسية ، أضعت فيها العمر والاطفال والشغل والهواء ، والطعام .

هل تكون تلذذت بالبطولات الخرافية المنسبة الى الاشباح التي تلوح بسيوفها من عاصمة البلاغات ، وفى غزوات الاذاعات . ان رجلا مثلك لا سيادة له ، ولا كرامة لبيته واطفاله يصعب عليه أن يفهم القيم بمدلولاتها الشمولية ، ربما وجد العزاء فى الغزوات الميكروفونية ، والثورات الدونيشوطية ، التى تمعن تقتيلا فى القيم التى عايشتها قرابة ربع قرن . ما زلت الى اليوم محاصر بقفة فارغة ، ورئة تتنفس بصعوبة . قد تستملح العزاء ، ولكنك مخطىء على طول ، لان الوطن كله فى خطر ، والخطر

يصبح عملاقا مطوحا يوم تقفز الأنا فوق الراية والخريطة . الرايه رمز مقدس ، والخريطة كبؤبؤ المين .

تحلم بالسلام ، السلام الذى تتوق اليه ، يراودك شعور أن تضع الحرب المتعبة اوزارها قريبا . تبقى الخريطة تمشى الخريطة ، يبقى الجار نفس الجار . يتبخر دخان الاتانية ، تهيد الارض بأوهام الغلمان ، تكف الاعترافات السطحية البليدة عن تركيب كيان من فقاعات صابون فى سراب الصحراء ، وتعود القنطرة القديمة التى كانت جسر الاحباب والاخوة اكثر طولا ، اكثر متانة ، اكثر وضوحا .

ولكن السلام الذى لا يحمل لاطفالك حليبا ، وكتابا للمدرسة ، ودواء للعلاج ، ومفتاحا للعمل ، ويحمل لك ولامهم الثقة بالنفس والوطن .. تحاول أن تبعد تصوره من الذاكرة .. أنت تومن بالسـلام ـ السـلام .

جرب أن تتحرك أنت وكل رفاقك فى جميع الخنادق . . وان تتدخلوا لتحويل اتجاه السلام ، يتحرك محراث الذاكرة فى عمق الارض ، والارض مازالت بكرا ، والبكارة علة وعار اذا استغرقت ذاتها ، اذا كانت ظلا أبديا .

هناوى احمد

عباس بن فرناس يعترف !...

اقصوصة

محمد العياشي

بين الحق والباطل شعرة أدق من زغب الشيطان . الحقيقة كثيرا ما تكون باطلا والباطل كثيرا ما يكون حقيقة . المسألة مسألة ظروف . الله يحفظ . قل أعوذ برب الفلق ورب الناس . عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .

.... اخترقت هذه أفكار جمجمتي فجأة حين انبعث عباس بن فرناس أمامي كمن انشق عنه الزمن والمكان ليمد يده مصافحا وشفتاه ترسمان ابتسامة أبت أن تعلن عن نفسها .

قال عباس : أين أنت يا رجل ؟ .. بحثت عنك مرارا !..

قلت متعجبا : هل هذا صحيح . !

— والله .. لقد بحثت عنك خاصة بعد أن قيل لي أنك واقع في ورطة ..

ـ اى ورطة !! (تظاهرت مرة أخرى بالعجب ..)

ـ ورطة النساء ! يقولون ان نساء البلدة الموانس تـآمرن عليك !؟

ـ كل النساء !؟ كيف أنـا لا أعرف ..

ـ يـا عجبـا لا تعـرف

ـ آ .. أعرف .. اعرف أن واحدة فعلت شيئا بعد أن عجزت أن تفعل شيئـا آخـر ..

ـ واحدة !! ماذا تقول انهن أكثر من الثلاثين .. يعنى كل نساء البلدة العوانس ..

تأملت وجه عباس بن فرناس .. عباس فى قرارة نفسـه يضحك .. خلف نظارتيه السميكتين كنون احترق لم يبق منـه الا رماد أحمر مصبوغ بدم ضحية لم تشو .. شفتاه ترتعشان .. انقطع بينهما حبل الكلام .. رميت اليه الحبل .. وضع كفه على كتفى ، ربت وقال وعيناه تبحثان عن ظله الذى تقزم بين الاقدام..

ـ هون عليك .. كثرة عددهن تثبت أنك برىء ...

ـ ولم تصر على الامر واقع حقـا .؟!

ـ هذا .. هذا ما يقولون .. يقولون ...

ـ من ؟. من ؟ هل تعرفهن أنت ؟.. مثلا !

(مولاى لقد ضبطناه داخل بيتك متسللا بين المقصورات .. أمسكنا به ثم فلت .. كان ذلك ليلا حين كانت الجوارى نائمات.. ومن عجيب الامر ان لم يكن هو .. فلديه من يشهد له .. وجهاء القوم يثبتون أنه لم يغادرهم قط تلك الليلة ..

ـ هل أنتم تكرهون هذا الرجل ؟

ـ نعم يا مولاى انه لا يصلح فقيها فى هذا الجامع .!

ـ حظ سىء اذن ؟!

ـ يقولون انه يصلى صلاة غريبة .. يسبـــح باسم الارض والهواء والماء والنار ويعاشر ايضا الغوغـــاء والغربـــاء والاعـــداء . .

ـ مـــاذا تقصـــدون ؟!

ـ يصلى واقفا او ماشيا ولا يركع ولا يسجد ويحمل فى ضميره أســـرارا . .

ـ انكم تكرهـــون هـــذا الرجـــل

ـ لسنـــا وحدنا . فحتى عباس بن فرناس

ـ وهذا لـــم يكرهـــه ..؟!

ـ الا تعلـــم ؟. عباس لا يرضى الا رضاكم .. كى تسمح له بالرحلة الى أرض الصين بعد ان لم يفتح عليه الله بالعلم فى هـــذه البلـــدة ...)

ارتبك عباس بن فرناس .. شعر بنغزة فى جنبه وفى دماغه ... أكثر من مرة وجدته يراود ويغازل نساء المدينة المطلقـــات والعوانس والمسبيات والصبيان .... وكمن فطن بانى ساحدثه عن ذلك هرب بعيدا .. ثم عاد يقطع مسافة طويلة حتى وصل يلهث وكانه قد سبقنى الى الكلام .

ـ هون عليك .! حتى لو كان الامر صحيحا ! لقد مررت انا بهذه التجربة قبلك .. وآخـــرون ايضا .. ان كيدهـــن لعظيـــم ..

لم يستطع ان يخفى دفاعه عن نفسه ، ان يقدم أعترافـا بشىء لم ارتكبه بعد .. فانقذته من الورطة ودفعته ليقفز الى مـوضـع آخـر وقلـت :

ــ ما اخبارك انت ؟ ما اخبار الفلاسفة .. كيف حال الجامع القديم الكبير ... ما اخبار الامــام ؟

انفرجت شفتا عباس وتنفـس هواء كثيـرا :

ــ الفلاسفة يذكرونك بالخير .. انهم منافقـون .. انهـم يدعون كتبك ويدافعون عنك بكل انواع المنطق ..

ــ والفقهـــاء ؟ !

ــ الفقهاء منقسمون على انفسهم .. بعضهم يملل وبعضهم يؤول وبعضهم يفتـى ...

ــ والامــام ؟

ــ لا تذكره لى .. فانا على خلاف معه فى مسائل ...

ــ ماهذا ؟ وأنت صاحبه .. يمينه ويساره .. يقولون ..

ــ صار يقرب هذا ويبعد هذا و و

ــ ولــم ..؟!

ــ الخلاف فى الراى .. القبلة واحدة والصلاة مختلفة ...

(امام الجامع الكبير كثير الشك .. يشك ويشك لكنه لايؤذى احدا .. حين سمع ان نساء المدينة أردن الدخول الى الجامع لاداء صلاة من الصلوات المستحدثة .. وان يطلبن العلم من الفراش الى الفراش ، قرر ان ينتخب جماعة تنظر فى الامر ــ فنظرت كما نظرت ورأت ان طلب العلم لا يكون الا من المهد الى اللحد.

وان الصلاة لا يمكن ان تتم الا بستر العورة ... فاغتنم من اغتنم الفرصة . ووسوس فى اذن كل متعهرة عانس حتى صارت الواحدة تكيد وتقول وتقول حتى قيل ما لم يقل وما لا يقال وما لن يقال .. وقــال الامام ؟

— ما رايــك فيمــا نسمــع ؟

قلــت :

— سيدى ان كان فى الامر غزل فانا حقا اعلمهم الغزل . ان كان فى الامر كفر فانا اعلمهم الكفر .. امر ان أؤدبهم بالغزل والكفر .. فدواوين الغزل كثيرة والحمد لله وذنب الكفر لا باس بها اما ان كان فى الامر اثم فلست مما يأثمون ، ان كان فى الامر شبهة فالشبهة لا حكم عليها . ان بعض الظن اثــم .. اما اذا كنت راودت واحدة عن نفسها فالذنب ذنبى ولكن اذا هى راودتنى عن نفسى فالذنب ذنب من ؟ . وانت شاهد من اهلى ..

— والله لست ادرى . الامر ملفق بدون شك ...

— سيدى حين ولدت جاءنى بشير .. ادخل الســرور على الوالدين والجيران بشرهم انى ان شاء الله اصيــر كالحجــر الاسود مباركا ... حتى انا فرحت بذلــك ايامــا .. لكنى حين عرفت الحقيقة بكيت اياما .. لقد صرت فعلا كالحجر الاسود .. كل من يقترب منى يمسح فى أوساخه وذنوبه وخرء انهم يغنمون ويتطهرون .. لم يبق الا انت ..)

قال عباس متمازحا :

— انك شيطان ماكر ... انك تريد الظفر بجميع نساء البلدة .. ماذا كنت ستترك لنــا ؟؟

نظرت الى عباس شجرا وقلت :

— عباس أنت تعرفنى .. أنت تعرف أن أهل بلدكم هذا وفقهاء جامعكم ذلك لا تشغل لهم الا تصيد الزنــادقه والفجــرة والملحدين والفلاسفة . وحرق الكتب والحقوق .. أكنت أضع راسى بين أيديهم وأنا الغريب .. ولى من الاعداء من يتحين الفرصه ... أتق الله يا عباس ...

قال عبــاس متراجعا :

— ألحق أنى لا أصدق .. الانسان أن طمع فهو يطمع فى واحدة .. فى اثنين . أما أن يطمع فى كل النساء وفى وقت واحد من اليوم الواحد فهذا محال ..

— دفــاع غيــر كــامل يــا عبــاس

— أعرف أنك رجل متأهل و و .

— حجة غير دافعة يــا عبــاس ...

— اعرف أن الانسان أن طمع فى واحدة ، وراودها .. فردته .. يصاب فى الكبرياء ولا يعود الى مثلها الا بعد حين .. يخجل .. ينكمش ويبحث عن مكان فى نفسه ليختفى فيه حفاظا على كبريــائــه ..

— دفــاع لا بــأس بــه ...

— لكنــك لم تــدافع عن نفســك

— ولم . ماذا حدث حتى أدافع عن نفسك .. عن نفسى ، نفوا ،... ثم ألا يكفى هذه الحجة .. أن تكون نســاء البلدة مشوهات ، أجملهن تشبه الخنزير الرومى والكلــب السلــوقــى ...

(سبحت .. رأيت جسدى ملقى على باب الجنة .. لا ميت ولا حى .. قطعة من تراب متخمر لا ينبت فيه شوك ولا عشب..

مطر الحزن ينزل مدرارا ، ومطر الفرح يتجمد ثلجا .. لا ريح لقح ولا عاطفة تدمير ... زمـن الصمت لا تتحـدث فيـه الا الحيوانات ، تهمس بالحكمة والموعظة الحسنة .. زمن الدائرة التى تدور فى الاتجاه السرى .... من ينفخ فى قلبى الاجوف روحا ولو كان روح شيطان .. ويبعث فى دماغى صورتى الضائعة ... الشهوة الشهوة تنهش .. اسم يتحرك على الشفاه .. حواء .. حواء .. أى حواء .. اياك .. اياك أن تقتربى .. اياك أن تطمعى .. فأنا كما لا تعرفين تعلمت الاسماء ولم أملكها .. فقدت أعضائى .. لا تخرجى .. أنا أتألم .. أتالم .. سأحقد عليك .. أحقد عليك ، أيتها الانانية كيف ترضين اغرائى باللحم والشحم والعظم ... ألا تشمى رائحة التعفن .. دعينى أنام .. سأنـام .. الحكمـة تاتى بعـد النـوم ..)

احمر وجه عباس بدم تفجر من فتحة أنفه حارا فحـاول اغلاقها باصبع يديه وقال :

— لقد أصدر الامام فيك فتوى .. منذ الان لن تقبل صلاتك فى الجامع ولا أحاديثك .. لقد وصفك بالعالم الذى يرتكب الكبـائـر .

— انه لا يستطيع ذلك .. وحتى لو فعل ذلك فلقد عزمت قبل هذا الوقت أن أرحل عن بلدكم وجامعكم .. سيخلو الجو لمن ضاق عليه .. ما كان يشرفنى .. عفوا يشرفكم .. أن أكتشف أنى بصلاتى بينكم صرت ملحدا .. على أن أعود ألى الحادى وصمتى لاصل الى ايمانى ... جئت أتطهر فاذا المدينة لا تعرف غير بناء الحمامات .. تجهل الغسل وتعلم الجهل ..

— المشكلة مشكلة امام الجامع .. لقد أفسد عليه الناس

بشكه .. جعل الفقهاء لا يستطيعون الجهر برأيهم ومنعهم من الدفـــاع عنـــك

— الشك يا عباس يعمى البصيرة .. لكن . عهدى بامـــام المسجد لا يؤذى احدا .. ولكنه .. يصـــدق .. يصـــدق بعض الناس ممن يوثق بهم فى الكذب .

— المسألة لها بعد آخر .. أنها مشكلة المرأة . فى بلدنا هذا، لا تزال متاخرة .. وأن تعلمت فهى تتقدم لتتخلف ...

— متاخرة أو متخلفة لانها لا تحسن الدفاع عن نفسها

— انها تريد أن تكون مساوية للرجل ، متحررة ، ثم تتهـــم الرجل فى عرضه اذا دعاها الى أن تكون كما تتمنى ..

— الامر غير ذلك .. ألم تر الكلب — حاشاك — الكلب الذى . يستطيع أن يعض ينبح حتى يشفى غليله

— نسهم سمموك تقول لاحداهن (صدرك عـــار .. بهيـــج للشهوة .. الخ .

— لو انك ست لها ذلك لخرجت توا تصرخ فى الجامع وأشرفاه .. او لتقبلت دعوة الى الفراش .. ولقلت لك فى وجهك صعلوك .. واصعلوكاه .. لكن ما المانع .. اسأل لم عرت صدرها وجمعت ثوبها على عجيزتها وحمرت شفتيها وصبغت عيناها بالالوان غير الطبيعية ...

— وقيل انك قلت لواحدة نلتقى فى منتصف الليل بباب الجامع.

— نعم ..! كنت ولاشك أفكر فى تكوين عصابة .. ولم لا ..؟! ولم لا يقال أنها قالت ذلك صدقا أو كذبا أو اغراء .. لم يتهم الرجل عادة فى مثل هذه الاحوال

ــ أنت فقيه .. تعرف أن هم المرأة مستور وهم الرجل ظاهر مفضوح ــ او كان كذلك قبل هذا الوقت ــ أنا نفســى أصدقك .. والله العظيم ..

ــ قبل انك تقول العكس يا عباس ..

سوى عباس نظارتيه . رأى نفسه فى عينى عاريا . . انتفش شعر رأسه ، انكمش يخفى المذلة وهو يسمع صوتا لايقدر على رده أو محاكاته .

ــ أعوذ باللـــه ! ماذا تقول

ــ أردت أن تطير . فنزعت عنى ريشى وثوبى لتصنع لــك جناحين .

ــ لم يحـــدث هـــذا !

ــ حدث هذا .. رأيتك وسمعتك .. لقد دفعت نساء البلدة. اردت منحهم البركة فلم تجد الا جلدتى الميتة .. وادعيت انى حلت بينهم وبين العلم والخروج والدخول والتبشير.. خفت من شبح أرتسم على نظارتيك فاختفيت ورائى ...

ــ انك تتهمنــى

ــ اشعلت الندر لتحترق يا عباس .. هون عليك الجميع لا يعرف .. حتى امام المسجد لا يعرف ...

خرج عباس بن فرناس من النور الى الظلمة ومن الظلــم الى النور . صار يخبط خبطا وهو واقف يمد يديه أمامه ماشيا نائما مستيقظ راقدا تسبقه رجلاه .. يتقلب حينا يتعثر حينا .. يحلم يفزع يستفيق يطمئن . يفزع ينام يحلم يغيب يعود ينتصب على قدميه يمسك بعمودين من دخان يرتفع هباء الى السمــاء

يهوى تنهشه نبابة على أنفه . يلدغه ثعبان تحت ابطيه ويتسرب ضفــدع فى حلقــه :

ــ انــك تبــالغ

ــ الم تات الملك بنت فلان خادم الخادم حاجب الحاجب وقلت لها ما قلت فقالت وقالت للباقيات قلن مالا يقال وما لــن يقل .. ورجمت كل واحدة بسبع حجرات . حتى سخر الشيطان من بلاهتهن ..

ــ من اخبرك .. أخبرنى ... انك تظلمنى ...

ــ كيف يحدث هذا بعد أن جمعت رحيلى .. يا عباس

نخل عباس فى نفسه ، داخل شجرة .. ذبلت الشجرة .. خرج منها .. جرى ترك يده فى يدى لحظة .. تحرك ، نظر حواليه يبحث عن حجر . سوى نظارتيه ، ادخل يده فى جيبه ، بحث عن حجه فلم يجدها .. اخرج يده .. حك جلدة رأسه . الارض تضيق بينى وبينه .. الأرض تسع بينه وبينى .. جاهد أن يعرف مكانه بين الطول والعرض والذل والكرامة .. لــم يستطع . حاول الابتسام أعوج حنكه ، حاول أن يضحك التوت رقبته .. أراد التماسك ، تعثر ، مسقط .. اختفى ، بقى فى العين .. انتقل الى الدماغ نزل الليــل ، تــاه بين الخطــوط والمنحنيات . وصل الى قمة جبل . ظهر قزمــا .. اطــل على المــدينــة ..

(البلدة آيلة للسقوط .. علامات الساعة واضحة .. فى وجوه أهل البلدة . لما صاروا يطلبون العلم بالجهل ولا يفتحون الافواه الا لياكلوا بعضهم بعضا . سترزقون النصارى بعد أن اخرجوهم .. يستبشرون بتسللهم من شقوق القصور والاسوار والجوامع ... كل المربــات والبنايــات والقصور والحمامــات

والطرقات والحدائق المقاهى والقهقهات لا تستطيـــع ان تمحــــو علامات الســـاعة ...)

ظهر عباس من جديد .. سحب يده .. تحرك ولم يبق شىء منه الا صورة رقبته تتقيح دما اصفر ...

محمـــد العيـــاشى

طائر الحلم

قصـــة قصيـــرة

اكويندى ســـــالم

---

1 ــ كيـــف تعـــرفـــت علـــى طـــائـــر الحلـــم ؟

فيما يرى النائم وان لم أكن نائما رأيت طائرا أبيض يحط فوق رأسى ، وعندما حط دلى منقاره حتى التقى بشفتى وجعل يحدثنى ، ودرت فى مكانى فلم أعثر للطائر على أثر ، حاولت ان اتذكر من حديثه شيئا لكنى لم أفلح الا فى تحريك يدى تمـــاما كما تفعل الطيور عندما تغادر الارض ، وقلت فى نفسى وكانى اكمل حديثا لم اسمعـــه :

ــ كيف سيصبح لون السماء لو امتلأت بالطيور ؟

حاولت أن أعيد الكلمة الى نفسى وان أقلع عن مناجاة ذاتى ، وركزت فى السماء جيدا بحثا عن طائر لم اره الا كمـــا

يرى النائم حلما .. حلقت حلقت .. أحسست دوارا ما ، الطائرة بدأت رحلتها ، جسدى بدأ يرتفع ، خيشيمى تمتلىء ماء، ينصب من جديد ويبدأ الدوران :

(ــ اين كنــت الامــس ؟

ــ الامس .. الامس الاحــد .. !

ــ نعرف الاحد والاثنين وكل الايام ونحن خلقناها

ــ ونحن نعيشهــا

ــ اذن كنت تعيش .. ؟

ــ أعيــش هــذا ممكــن ...)

ترتفع الطائرة .. يهدأ جسدى . خرج خيشيمى . اعود الى ذاتى مستمر خيبة الشاعر الذى غنى ولم يحس من الا حركات بنائية .. احرك يدى لاعيد العمل فلا ارسم الا دائرة ، وادور فيها .. وتدور معى كل الايام المخلوقة للعيــش .. وتــدور الجدران الاربعة وتبرز الكوة واحاول أن اطل على زرقة السماء لارى ان كانت الطيور قد اكتسحتها واحالت لونها الى شىء آخر غير الزرقة التى أصبحت لونا وهميا بين ألوان الجدران النتنة وفوهة الكوة الجائعة لنور الشمس .. ابحلق مرة أخرى لكن فى الجدران أفتتها ، اشتهى طعم سيجارة لاحدث نافذة الليل ، لاعيد شكل الطائرة الذى أحس جناحيه تراوح فوق راسى ومن خلال النافذة التى تتسع من خصاص دخان تبغى الرخيص يلوح وجهها الاخر الذى قد يكون طائر الحلم الذى تعرفت عليه كما يتعرف النائم على حلم لم يكن ينتظره .. كذلك تجىء هى الاخرى ... ابتسم .. أمد يدى ، تمد يدها ! نعيد رسم الدائرة ..

تدور ... تدور الجدران نضيع فى الظلام .. أتسرب الدخينة .. تنفتح النافــذة :

(ــ لقد ذهب « م »

ــ أعرف ذلــك

ــ انها الايــام السـوداء ..!

ــ نعم الأيــام المخلــوقــة

ــ ربـــس بعينيهــا ...)

تدق الساعة .. تدهشنى عقب الدخينة .. أتنسم الدخــان المتناثر داخل الجدران الاربعة .. أحرك يدى ولا أطير ... أتذكر الطائر الذى حدثنى ولم أعثر له على اثر .. وأدخــل الدائــرة ... أحاول جرها لكن قبض يدى ريح ... لقد ضاعت كل طير طائر الحلم .. أدخل الدائرة وحيــدا ... أشعــل سيجارة .. افتح نافذة فى الظلام أطل منها على ظلامى ... أرد دخان السيجارة ... أحدث شرخا فى الجــدار المقــابل تهزنى رفرفة الطائر .. أفتح عينى وتظهر ذبالة الدخينة بين أناملى وأعود لابحث من حولى عن سبب الضجيج الذى أحدثه طــائــر الحلــم .

2 ــ كيف حط طائر الحلم فوق رأسى ؟

فيما أنا منشغل اذا بالضجيج يعلو ويحتد والطائر يتهاوى بجناحيه ، وفى زرقة السماء تسبح بقية الطيور الاخرى ، وأنا طائر مشدود الى الارض بألف خيط وخيط ... أسبح فى عتمة ظلامى أفتح فى كل جهة كوة تقترح المزيد من الشرر المتطاير :

(ــ آه لو أحرقت الجدران وأعدت صنع الطائر الذى أحب ..!

ـ أتسدل سيجــرة تــدرك هــذا ...

ـ أخاف على نفسى من الاحتــراق

ـ أنظر الفــراشة انها تعشق النار وتحترق

ـ اذن لم يبــق الا الاحتــراق ! ؟.)

انه بالفعل الاحتراق فى ليل شديد البرودة ، كيف يا تبغى الرخيــص تحول هذا الصقيع الليلى الى دفء من خلال رشفة دخانية تعطى توهجا وبعدا لذاتى الاخرى لطائرى الاخر لاناى اتغيــر المحشورة داخل قضبان العظــام ..

فيما انا منشغل هكذا يشتد الصقيع .. يهرب الرفرفة.. يحط طائر الحلم فوقى يدلى منقاره افتح شفتى ... يكلمنى ... ادور فى مكانى ابحث عن طائرى .. يهتز جسدى .. تغشانى رعشة كهربائية من الراس حتى القدمين .. أنطرح أرضا ... يجثم طائرى فوقى ... يحركنى بعنف يخضنى أتنفس من خلال منقاره ... يلقننى ما أقول ... أغوص فى الظلام أبحث عــن نافذة ليل لا أرى شيئا ... يغرز الطائر منقــاره فى شفتى : (ـ تكلم لمــاذا لا تاكــل .. ؟

ـ اننى لا آكل لاننى آكل ...!

ـ كل فى زمن المجاعة قد ولى

ـ كل المجاعة قد اتت

ـ كيف المجــاعة .. نحن فى مجاعة ؟

ـ لا اقــر الا بمــا احــس

ـ ســوف ترى ايهــا العنيــد ... !)

أقوم خائر القوى ، رجلاى لا تقويان على حملى .. أعيد رسم الدائرة بيمينى فقط .. أحاول اخراج يدى .. أمدها .. انتظر ان تمد يدها هى الاخرى ... تكى أضيع فى ظلام الجدران الاربعة أقرأ فيهما معنى الضوء والنمذه فتصدنى البرودة والصمت .. أنتبه لعل رفرفة ثنية تضج حولى وأدف أن تعاودنى الرعشة الكهربائية ، وأظل فى حدود الدائرة المرسومة أتحسس يدى ورجلى ويطول الانتظار ولا تمتد يدها .. ... ويطول الانتظار فاجدنى أعيد رسم الدائرة ، وأدور ... وتدور معى كل الايام المخاوقة ، وأدور ويدور معى طائر الحلم ولا انسى انى فى انتظار ان تمد هى الاخرى يدها من البعد الاخر ... !

3 — عندما حدثنى طائر الحلم :

فيما يرى النائم وان لم أكن نائما حدثنى طائر الحلم قال :

— اسمع يا ولدى فى اليوم الاول خلقنا السماء زرقاء !

— لكن الطيور تكتسح زرقتها يا طائرى العزيز .

— اسمع يا ولدى فى اليوم الثانى جعلنا البحر أزرق !

— لكن السمك يطير فى زرقة السماء

— اسمع يا ولدى فى اليوم الثالث سوينا الارض وكان الانسان !

— لكن مناجم التفاح والليمون وأشجار الحديد والفوسفاط تقول غير هذا !

— اسمع يا ولدى فى اليوم الرابع كان الذباب والغيلان

— لكن يا طائرى العزيز الانسان صار يقضم شجر الحديد وينقب عن التفاح والليمون

ـ أسمع يا ولدى فى اليوم الخامس نبتت فوق الرؤوس القبعات والعصـــى

ـ لكنها الايام السوداء هذه التى خلقتهم

ـ اسمع يا ولدى فى اليوم السادس كانت الموسيقى والكتاب

ـ اسمع .. اسمع لكنها الايـــام السوداء

ـ أسمع يا ولدى فى اليو مالسابع ختمنا على أفواههم بالشمع والرصاص وكانت الدائرة

ـ نعم سمعتك يا طائرى الحلمى لكن لم أر الا السواد والدم

ـ اسمع أو لا تسمع هذه أيامكم عشها أو مت . .

وما كاد ينهى وصيته الاخيرة حتى كانت جناحاه ترسمـــان دوائر للريح فى عنان السماء ... وفى برج زرقة السماء حلقت خلفه محمولا على طاولتين وعمود ككبش ((الويستيرن)) المسلوخ مؤخرتى مدلاة الى الاسفل وخياشمى تملأها بقايا ماء عكر ... هكذا كنت أتبع طائر حلمى ...

(قلتـــم كنتـــم تعيشون أيـــامكم ...؟

ـ أيـــة أيـــام هـــذه ؟

ـ صـــه الايام السوداء كمـــا تسميهـــا)

لم تعد عيناى تميزان من الالوان الا الاسود والرمادى .. الرجل الذى أمامى يبدو رماديا ... الجـــدران التى تدور من حولى سوداء ... حديث الرجل رمادى ، بحثت عن كلام رمادى فتهت ، لان طائرى لم يعطنى الا اياما سبعة وسكت ! فتبعته لكنه اختفى وبقيت فى أثره حتى لاح لى من البعد الاخر وجهها ..

قـــالـــت احبـــك ..

كنت طائرا احلق عبر طاولتين وخازوق .. التقتت الطاولتان .. أفرغت انفى وفمى من ماء عكر كان يملأهما .. اشعلت سيجارة ... كان الليل وشجرة الفوسفاط والحديد تبحثان عن شمــوع للفرح ... السيجارة نافذة لليل عبرها أطل وجهها ابتسمت .. التمعت الدخينة .. رقصت الشجرتان من حولنا ...

قالت : بهـــذا جئتـــك !

مدت يدها .. مددت لها يدى ... تركت رأسها يسقــط فوق صدرى ... رفرف الطائر حولنا قلت احبك

قـــالت بهـــذا جئتـــك

قطفت فاكهة معدنية من الشجرتين قدمتها لى ، مضغتها

قالت : ستخرجنا من الجنـــة

قضمت من الشجرة الاخرى فاكهة ثانية كان طعمها لذيذا ،

قالت : الخطيئة الاولى كانت لجدتـــك

أتت على الفاكهة ، غمزت ، تبعتها ، لم تكن هناك اية حية، بل أمامنا شجرتان لا شجرة واحدة

ـــ وكل احدة منهما تحمل فاكهة لا يمكن أن تكون الا على هذه الارض (هكذا قال الطائر ...)

لكنهم خلقوا القبعات والعصى ... وخلقوا الانسان كذلك ...!

انها الان تدلى فستانها .. الفستان المدلى ينتفخ بالفواكه ... بطنها ينتفخ ، وانا انط من خلفها .. الطائر يدور حولنا ...

لا أثر للحيات والافاعي هذا .. ثم انها نبذت ورق التوت كما أنى أرتدى بنطلونا ... فرحت لهــذا الاكتشـــاف ... مـــدت الفستان المدلى .. فاربدت السماء وتوالت الغارات وضاعت زرقتها ... حملقت فى الفاكهة المنتقـــاة :

قالت : خذ هذه .. !؟

مدت كــلاشينكــوف

قلت : أحبـــك

قالت : بهـــذا جئتـــك

قلت : احبــك

قالت : فاكهة بلادى محرمة منذ جدتى الاولى

قلت : والى متـــى ؟

قالت : حتى نتضرج بالـــدم

مددت يدى ، قصمت الكلاشينكوف ، التمعـــت الجـــدران السوداء .. ، نفثت دخان سيجارتى الرخيصه ... بدا وجهها يتراقص بين جدل التبغ المحروق ، ضجت رفرفة الطـــائر مـــن حولى .. التفتت كان الرجل الرمادى يعيدنى الى الطـــاولتين والخازوق ، نزع منى عقب السيجارة ودهسه تحت قدميه

(ـــ انتهت الاستراحة ... الطائرة ستحلق

ـــ الى أيـــن ؟

ـــ رحلة طويلة هـــذا كل ما أعرفه ...؟

« ركبت » الطائرة .. مؤخرتى مدلاة .. الشيفون يغلف خياشيمى .. الذزوق يراوح بينى وبين الطاولتين ليرسم فاصل الوهم والحقيقة ... الشجرتان تقتربان ثم تبتعدان ... احس جناحى الطائر تلامسانى ووجهها من البعد الاخر يقول :

بهذا جئتــك

اكويندى ســــــــالــم

غراب.. فوق بيت من قش

أقصوصة

ضيـــاء قصبجـــى

الوقت لازوردى ، وهما حبيبان يشمان من عطر الزهـــور أنفاسهما .. ويسكنان فى بيت جدرانه وسقفه من القش ، وأرضه من تراب الوطن ، هما هائمان فى بحر غريب من الحب حـــب الواحد للاخر .. حب الاثنين الارض والسماء ، حبهما لدقائق الوقت الدافق مع أسمى وأعمق الرغبـــات .

على صغير قطار عابر كانت ترقص رقصات الوداع المعبر عن الزمن المجهول .. على صوت البلبل والعصـــافير كانت تغنى ، ومن سعف النخيل كانت تغزل بردتها وكان مثلها متعاطفا وأياها محبا لها وللوقت الذى جمعها ، راضى بما هما فيه من لحظات ممتلئة بالشوق ، طالما أنهما بعيدان عن عن كل شىء.

وحط الغراب على مقصورتهما ، وأخذ ينعق نعيقا مزعجا

.. حط التشاؤم على نفس المراة ، وغلفها بوشاح أسود . . طردت الغراب ، وقصت لحبيبها قصته ، فاظهر لها أنه لا يبالى وان التطير مرفوض والعاقل لا يتشاءم منه .. عاد اليها مرحها وعادت أليهما السعـــادة .

عاد الغراب ، فوقف على قمة البيت القشى ينعق نعيقا مخيفا ، طرده الرجل حيث كانت المراة خارج البيت تتلهى بقطف الزهور الملونة ، لتضعها فى حوض ماء صغير داخل البيت القشى، وكانت تقتطف بعض ما تنبته الارض لتحوله الى طعـــام لذيذ ، يتخلله لحم الطيور .. رأت رجلها مكتئبا فقالت له :

ــ لقد عاد الغراب اذن ؟.

ــ نعـــم .

ضحكا ، لا بل اصطنعا الضحك ، وتجاهلا مـــا شـــاب نفسيهما من هم وغم .. لكن الغراب اعتاد النعيق فوق بيتهما بـــاستمـــرار .

وفى ليل .. كانا يغفوان على ضوء القمر الذى يتســـرب من حزمات القش ، وكانت النسيمات الرقيقة تداعبهما ، وهمـــا متعانقان ونائمان .. حط الغراب ونعق .

هبت المرأة من رقادها مذعورة ، حملت بندقيـــة كـــانت تستعمل للقنص وصيد الوحوش ، وصوبتها الى الغراب فقتلته ، أوقفت الطلقة نعيقه ، فارتمى على الارض مضرجا بدمـــائه . اما الرجل فقد شحب لونه ، ونظر اليها بخوف ، وقد أخذتـــه الشفقة على الغراب ، ورآها فى حالة مريبة ، أشـــار اليهـــا متســـائـــلا :

ــ أأنت تقتليـــن . . ؟

ــ اراد ان يعسد سعـــدنــا ٠

ــ انت نغبيـــن ٠ ؟

ــ نحن بيننـــ واراد ان يفـــرقنـــا ٠

ــ أنت حبيبتـــى الرقيقـــة الوادعـــة

ــ نعـــم غـــراب قبيـــح ، اقلـــق حـــالنـــا ٠

لكنه لم يقتنع ، بل لقد نسى كلام الغزل والحب ، نسى الحياة ، وكل الاشياء الحلوة الجميلة ، ولم يعد يذكر ســـوى ســـؤال ملـــح ٠

ــ أنت تقتليـــن ٠!

حتى ضاقت ذرعا بما آل اليه حبيبها ، وذات مرة فقدت اعصابهـــا وقالت بعد ســـؤالـــه :

اذا كنت لا تصـــدق ٠٠ فخـــذ ٠

أطلقت طلقة نارية استقرت فى قلبه النابض فقتلته ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

تساقط القش فغمر الغراب والرجل ٠٠٠ وسارت هى الى ابعـــد مكـــان ٠

٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠

حلـــب ــ ضيـــاء قصبجـــى ٠

ملصقات بطاقة تعريف

(اقصوصــة)

محمد الصـــروخ

— 1 —

اليــوم لم يقرا اى شيء ... طوى الصحف والمجلات ،، ونزل الدرج الى الخارج مسرعا فى طريقه ،، لم يكلم أحدا .. تحاشى دكان الحــاج بلعيد البقال وعلبة سيجارته المعهودة ،، تجاهل الالام التى تسرى تحت جلده كالنمـــل ، ومضى لا يلوى على شيء ،، اليــو تشغله اشياء قديمـــة لازمة ،، لا وقـــت يضيعه فى الثرثرة عن الغلاء ،، والموت ،، وازواج والحوادث ،، وتجمير الخبز على الجمـــر ،، الموعد ملك عليه كل طاقاته ،، عليه ان يذهب اليـــه اولا ،، بعد ذلك ارا ما عنده !

أمامه ،، يبدو الشارع الاحدب فى سباق مع الزمـــن ،، على خديه أستقرت سيارات فارهة وامتدت بجانب المحـــلات

التجارية الكبـرى الي متاهات غير مرئيـة ،، شعر بضآلته بين هذه العمارات المتقابلة والجمـوع الآدمية الزاحفـة ،، يداه فى جيب سترتـه ،، وقدماه تذرعان اسفات الشارع فى صمت .

على حين غرة ،، قهقه وسط الشارع الصاخب ،، التفت اليه بعض المـارة التفاتـة خاطفة كتموا ضحكهم وتابعـوا السير .. يرنو الى الواجهات الزجاجية .. يقف عندها قليلا .. لا يهمه ان يسخر منه رواد من العالم (نسى ان يقول انه فـى شارع رقم 1 .. بين ادم رقم 1 ضموا معه (من فضلكم) خطا تحت جملـة رواد هذا العالـم .. وما شاء اكم فى الخطوط تحت أدم 1) ..

منذ ثلاثـة ايـام .. مرـ س ـ بنفس الشارع ،، راى فيما يـراه النائـم وهو فى يقظته قطيعا من العذارى وهـن يتخايلن فى غنج ودلال ،،، كن يجرين احيانـا ويستغرقن فـى الضحك المرتفع ،، صدور بارزة منتفخة ،، سيقان مشتعلـة متفاوتـة الطول والعرض ،، لم يجد ـ س ـ بينه وبين نفسـه لغة للتخاطب معهن ،، لكنه همس لنفسه مغتاظا ...

امرحن فهذا زمانكن ،، القطط السمينة فى انتظاركن عنـد كل منعطـف ،،، ستمتصكن القطط السمينة فى مدينتـى ،، وستسقطن يومـا من عليائكن كاعقاب سجائر !!!

ولما تمادت الفتيـات فى مراهقاتهن الهاجنة ،، فكر ـ س ماذا لو ضرب أحداهـن على قفـاهـا ضربة نـاجحـة ،، فيحملها على كتفـه الى حيث الخلـوة ،، حتى اذا ما افاقت راجعة حكت لصديقاتها مقتنمـة .

ـ يـا اختـي انه فحل جيـد ؟

ــ لكن وجهه كالمسح ويبدو انه غير سمين .

ــ هل رايتن ،، يطاردنا كما يطارد المروبى بنته بمصاه !

ــ هاها ،، هاها ،، هاها ،، هاه ...

ــ 2 ــ

تطلع ــ س ــ الى ساعة كبيـــرة صلبت نواصلها علـــى جبين بنايـــة ادارية عتيقـــة ،، العاشـــرة صداحا بالتمـــام وهو لم يشـــرق بمد على مكان موعده ،، لا جدوى للوقت فى حسابه الا أذا اقترن بالمواعيد ،، منذ لقيها لآخر مرة فى بار (لوكس) وهو يشعر تجاهها بهذا الظمأ الى الحديـــث والوصـــــــال والمناقشة ،، لعلها قابلة للتفاهم معه ،، لعلها تستطيـــع ان تشاركه كثيرا من آرائه ؟؟ لكنها من غير طبقته ،، فكيف يعقل ان يكون محظوظا هذه المرة ؟ على كل ،، يريد ان يراها الآن .. ما زال يذكر لقائهما آخر مـــرة ،، كانت تتافـــع بفرائها وهمـــا يكرعان الجعة سويا على أنغـــام غربية هادئة ،، قالت له بعد ما اصغت اليـــه طويلا كأنما تريـــد ان تكتشف من لهجتـــه نوايـــاه الحقيقيـــة .

ــ وكيف تتصـــور هـــذا البديـــل ؟

ــ بالثـــورة ،، ايـــه الثـــورة ،، !؟

ــ الثـــورة فيهـــا وفيهـــا ؟

ــ اذا لـــم يكن كلامك شعرا ،، موافق !!

ــ اوه ،، مالـــك

ــ تمشي معاى لقبرى هذه الليلـــة !!

ــ اوه مرسى ،، عندى ارتبـــاط آخر ،،

تتوقف رجلاه النحيلتـــان ،، تعب ،، المشى المســـرع بين هذه الابناك والواجهات الدعائية أمر ــ لاريب ــ متعـــب

للغاية ،، تصورها جالسة تنتظره الآن ،، تضع فخذا فوق آخر ،، تسحق البيرة والسجائر الامريكية وتبحث عنه عيناها الخضراوان فى عز الدوخة ،، الطريق مهووسة وهو لم يصل بعد ،، ما يفتأ يهرول عند اقصى المنعطف ويتنادى سرعة السيارات الزاعقة فى كل اتجاه ،، عليه ان يجتاز هذا الشارع الغاص بالسيارات ،، بالعربات ،، بالقمصان ،، بالكلاب ،، بالمراهقين ،، عليه ان يجتاز ذلك كله قبل أن تحتضنه بذراعيها البضتين وترحب بقدومه كالعادة . .

انتبه — س — الى حادثة سير وقعت بين سيارة صغيرة ودراجة نارية ،، يبصق على الارض بصقة متأففة مكرورة ،، يبصق مرة ثانية ويتابع طريقه ..

— 3 —

دلف الى البار ،، حانت منه نظرة شاملة على (الكونطوار) والمقاعد المرتفعة ،، جال ببصره ولم يعثر عليها ،، تأخرت اليوم وعليه ان ينتظرها قليلا الرواد يعبون الخمرة ،، ويثرثرون بأصوات مرتفعة متداخلة ،، اتهامات تلتهب ،، وفضاء البار يعبق بدخان السجائر الكثيفة .

جر — س — مقعدا ،، وانتحى فى الزاوية اليمنى للبار ،، عليه انّ يدشن هذه الجلسة بزجاجة باردة ،، مثل هذا الشوق وهذه الشواط لا تخمدها الا خمرة باردة من خلال خصاص البوابة السميكة رآها ،، رآها وهى تغمز البواب الخشن فى ادب ثم وهى تطأ الفناء الواسع الذى يصلح تماما للرقص الجماعى ،، تتعلق بها انظار الرواد ،، تطير حولها بسبساتهم وتعليقاتهم ،، تقطع — ع — وهذا اسمها المسافة

القصيرة فى اتجاهه بخطى ثابتة ،، هادئة :: فتسبقه منهما عطورها قبل ان تستقر بجانبه

— جئت مبكرا اليوم ؟!
اجابها — س — فى اقتضاب

— نعم
— شرعت فى الشراب ؟! أوه .. كان عليك ان تنتظرنى !
— (...)
— دايما نفس الافكار ؟!!
— الحالة خطيرة يسا — ع —
— (...)
— قالت لى فيفى ان صديقك مشا
تساءل — س — مهتما
— فين ؟!
— للسجن
— مزيان !؟!

انتبها الي جلبة غير عادية امام الكونطوار ،، امسك احدهم زجاجته نصف الفارغة بعد ما شرب كثيرا ،، لا جديد ،، لا فائدة ،، اقتمد ارضية البار ،، وطفق يتمرغ ويصرخ

— أعباد الله انا مقموع ؟!؟
— أعباد الله أنا مكرفص !؟!
— أعباد الله انا مقموع ؟!

ووسط الضجيج ،، من بين الرواد ،، انسل اليه غليظان !! امسكاه من راحتيه ، ، ازاحا عنه زجاجته أولا وغابا به عن

الانظار في أدب مكتوم المـــائدة المستطيلة بينهمـــا تأخذ ابعـــادا حلزونيـــة غير ثابتـــة ،، زجاجات البيـــرة تتوالد كالفقاقيع على السطح — س — يتحدث كثيرا ،، ويشجعه دفء الجلسة علـــى الاسترسال — ع — تصغى اليه باهتمام بالـــغ ،، والنادل ببذلته البيضـــاء وبسمته الضرورية الصفراء يطير بالدوخة ويسقـــى الظماى والمعذبين في خفـــة متناهيـــة ...

— 4 —

تقريـــر الـــي جهـــات معينـــة ..

من ع/مصلحـــة،

وبعد ان تأكدنا من هوية المذكـــور — س — الساكن بحى (. د .) شارع (...) رقم الدار 10 ،، بنفس المدينة

وبعد التحقق من المعلومـــات الضرورية والمحددة في تقريـــر سابـــق ،،، تهيأت لدينـــا الملاحظات الاولية التالية .

— أن السيد — س — ذو علاقات كثيرة ومشبوهة
— لسانه طويـــل ،، وأفكـــاره مستوردة

— يعانى من أمراض مزمنة ،، لكنه يجزم انه لن يقضى قبـــل الاعـــراس ؟!...

— معزول عن وظيفته حديثا ،، بسبب مشاغبته فـــــي الاضرابـــات وأعمال الفوضي السابقـــة ...

ملحوظة : (ساذهب الى الحمام هذا المساء (كان ذلـــك ضروريا حتي اختبـــر نحولته وحياتـــه الخاصة) .

عن ع / مصلحة / ملف مفتوح .

محمـــد الصـــروخ

محاولات لطرد المغني من القرية

(اقصوصـــة)

نجمـــى حســـن

تخونك الرؤى يا رفيقي من زمان ، فما عدت تدري كيـف تختار رفيقاتك ورفاقك . قلبك كبير ، لكنه لا يستطيع ان يتسع الا لطفلـــة واحدة .. وهذه هي مأساتك الجنونية . امك تريدك أن تظل لها طفلا تحبو على ركبتيك ، والجنية التي لفحتك بنـــار شفتيهـــا لم تعد تتحمل معك الالم الذي صنعته على كفها ، بل اكتفـــت بجرحها ، فانطـــوت عليه وانطوى عليها ونام الاثنـــان على سرير من صمـــت . ووحدك المولود من بين الصلـــب والترائب ، مسافرا علي اكتـــاف الصقيع والثلج الى جنة النار .. وهذه هي مأساتـــك التي تؤرقك ليل نهـــار ، صباح مساء، صيفا شتـــاءا ، خريفا وربيعا . وحدك تخونك الـــــرؤى ..

وحدك يخونك الادراك ، وحدك العائد من معسكرات داوود على احدى عينيك رقعة سوداء ، وحدك يمتلك ليل النهار ، وحدك الصفر الذى واجه سيف مرجان ، فما ماتت شهرزايتك ولا نامت عين مرجان المشتعلة شررا وما انتهت الحكايا والقصص . (كما اذكركم ان الليلة الاخيرة بعد الالف ليلة وليلة لم تأت بعد) . واخيرا وحدك بلا مستقبل ، بلا وطن .. مأساتك ان السجن نهاية مأواك فى اغلب الاعتقادات والتخمينات والافتراضات ، وحتى النظريات العلمية تؤكد ذلك، فما اصعب ان تتحول الى خبر وفاة او بطاقة تعزية فى جانب مهمل من احدى الجرائد ينوشك النسيان وتلهو بقصاصة خبرك رداءة بلدتك وسوء طالعها ، وكأنك ما كنت يوما تنتسب لهذا الوطن المسعور ، بل انك فعلا ما كنت من ابنائه ــ يقول باشا المدينة ــ وتسألنى من هم ابناء هذا الوطن ؟ كثيرون اجيبك ، وتلمع فى ذاتي جمرة الانتماء. هذا الوطن ، جل فلذات كبده تشتاق لان تكون دركا او جمركا عاما او ظلالا على العموم ، وكلما نادينا : يادركيا ، تسابقت الينا الفلذات . وكلما نادينا : يا جمركيا ، التفتت الينا كل الوجوه تتطلع الى وجوهنا ، تحدق فى عيوننا فتقرأ سور الاستماتة النقابية التى رسخها فينا غول مات شهيدا .. فيا شهداء العالم كيف اتحدتم من زمان ؟ واما انا/انت فما تدرى كيف تقارن بين رفاقك ورفيقاتك وقلبك الجميل . قلبك الصغير ما زال بعد لم يجد متسعا لكي يخون رؤاه ويحتضن الف طفلة ، الف زمن ، الف علم ، الف ارض .

❊ فصل من ملحمة جلجامش الجديد :

فركت عينيك ايها الوجه الآتي من الجنة ، اقمت الفرحة

والعرس ، تحسبت نفسك جلجامش الجديد : تحديت الآلهة / آمنت بالتضحية ، فكانت طريقك نحو النصر والخلود/قتلت حارس الغاب وهو امر ترفضه الآلهة ياجلجامش . ان الطريق التى تنشدها فيها النيران والظلال والدرك والجمرك والشرطة والعيون ياجلجامش . احذرك ولا انذرك ، تقاوم وستصل بجرحك الاندلسى وفى قلبك اطلال جراح تركتها طفلتك الغرناطية التي جعلت منها انكيدو الجديد ، آمنت بالتضحية فكانت الضحية وانتصرت انت ياجلجامش النصر والهزيمة . فظمى هي الجريمة التي تحترق فيها الاضواء الكاشفة والمياه السقوية يامولاى . بشعة هى الاوامر التى تجعل الرجال خصيانا يا مولاى . جنونية هى اللحظات التى نقتلها على قبور الاسلاف الكرماء يا مولاى . هي المرأة القادمة بالمخاض تبتسم كما تشتهى يا مولاى . . هى الفوضى فى الناس تخطط استراتيجيتها وتعانق امجاد اليرموك واولاد خليفة يا مولاى . واما حبيبى فأحلامه الحمراء لا تندثر ، آماله تتسع كل نهار تأهتف : حبيبي «نوبير» ، حذارى من مديات النهار ! ان النهارات ليست نهارات كما نعتقد والمسألة اكبر من اللغة وما يعتقدون ،، اكبر من الكتاب وما يسطرون .. من الاشعار والاهازيج وما ينظمون .

❋ المأساة الانسان :

ان الصدأ يقتلنا بعد ان لازمنا الفراش الف ليلة وليلة ، وقوائم السرير اسقطها هذا الصدأ الفولاذى كالاحصنة حين كانت تبرى السيوف قوائمها الراكضة ، وقريتنا صارت امرأة هرمة يقتلها الاملاق يضاجعها الجوع يتبول فى ثغرها حزن المساء الشتوى ، فتكلف نفسها فى مطاردة تقاسيم الوجه البشعة بالزينة المسائية بأحمر الشفاه،

وما كرهت ثيابا تعصر نفسها بعد الغسيل وخضراوات ملفوفة بالسيلوفـــان ، قريتنـــا الهرمة . لو تسمعون كلامى المبحـــوح، سادتي ، كنتـــ تنحيتم جانبـــا عن هذه الترميمات التى تأخذنـــا حتما نحـــو التلف ، نحو البـــوار ، نحو التصور الطوباويـــة المبنيـــة على متـــن بن امسيـــك .

مشهدية احلامك تضاجعيها فى ليالـــي الصيام ، تبريزيـــة ارقـــام شهدائك يا عيونى التي ارهقتها الامساك وجامعهـــا الويـــل فى زمن الويل والخيانـــة و ... وانت ياجي ـــ خبرنى القلـــب المسكون بالهجير ـــ انك ككل البسطـــاء تعشق عشائر النـــور والزنزانـــة ، تهوى اقراص الشمس والنيازك ، وما اتعبـــك تحضير المؤتمـــرات والندوات والاقاءات تناطاقـــت تطهر القرى من الجباية والمهارة والخراج . ولست اخشـــي اذا قلـــت : المأســـاة الانسان .. المأساة الوطن ، فاتحيـــا النيازك فى ارضي ، فى قلبى ، فى اى زمان واى مكان تكـــون فيـــه المأســـاة الانســـان .

ابـــن احمد : نجمـــى حسن

«عن الكلاب والاشياء الاخرى»

اقصوصة

بخروب عمر

تتوالى دقات الساعة الموضوعة امام المذياع . تتهاوى خيوط الدخان ، فالسيجارة المتحولة ترسلها الى اعالي .. تتهاوى خيوط الدخان دوما .

أصوات كلاب ، بعيدة ، تجعل من سكون الليل استمرارا متقطعا ... تختفي من وجهي اثار الندوب اليومية ، اذ اجمع شتاتها ، واستودعها الاعماق .

كانت في مخيلتي صورة لخليلتي التي لم تأت يوم الوعد. كنا قد اتفقنا على ذلك يوم لقاء الاربعاء الاول من الشهر الحار ... اصخت ... هناك خلف باب غرفتي سعال زائرتنا ... امراة تركت كماشات الزمن ... الزمن ... وحش خرافي لم يتوقف بعد عن ابتلاع مخزون ذاكرتي الغير المنجذرة . سعالها

يتعالى ... انتفت للحظة دقات الساعة . كماشات الزمن ... الزمن ... هذا الفرس الجموح ... يضايقني ، دوما . نباح الكلاب ، شمشمة الكلاب . تحولات البشر الى كلاب هي ما يفزعني اكثر ، واتذكر انني كنت اشفق على الكلاب وهي تطارد من طرف قاتليها عندما كنت صغيرا ... التحولات . لعبة التوازي ، ونفض اليد ، والذاكرة من اثار مخالب كلاب ذوي لون اسود .

كنت ادفع بمنكبي ، مناكبا . لا ازدرد ريقي ، اذ كنت اشك في نفعه . اردت ان ابصق . ولكن حاصرتني المناكب ، وكنت اخشي ان ابصق على وجوه الرجال ، الذين تحولوا الى كلاب . ان كل الاعين الكلبية حمراء كأن بها خمرا احمر ، او لقحت دما . امتدت الايدى الي خناقي ، واردت الصياح ، فتحول كل شيء ضبابا ، ثم دخانا كثيفا ، وهاجمني التلعثم ، اعوج لساني ... اختنق ، مددت يدى ، فاصطدمت بشيء يشبه ، وجها . عرفت هذا الوجه ... اردت ان اخبره بما يجرى . هذا الوجه جامد . شعره اشعث . تقاسيمه ، صخرية ، صلدة ، عيناه متحجرتان . لم يسمعني . ام يسمعني هذا الوجه اذ كنت /لا ازال/ مخنوقا، بفعل المناكب ، والدخان الكثيف ... ايقنت الهلاك ... تسرب الذعر الى دمائي ...

* * *

ارتميت على الارض/ارض/ كان يقيني مضادا/اليقين/ ولازال ، كنت فعلا مجنونا ، اثمرت ايامه فقدان الايمان بالذاكرة الرسمية .

من الزاوية اليمنى تصل اصداء مدينة بلا بطل. دخلها الرجل الهارب مختفيا ... استقبلته القبيلة ، بفرح مجنون

/ليس كل القبيلـــة/ سلط القادم ادمار علي المدينـــة ٠ التـــى تسكنها قبيلـــة (فقــدت التعريف) ٠

كنت احكى الحكايـــة لجارتنا التي رحلت ، وقد جذرت فى جانبى الايسر وشمها ... وغابت .. غابت ، والتقينا، كعصفور بـــلا زغب نط القلـــب من مكمنه ، وقلد ايامـــه الغائبـــة ... كـــاد يسقط، لـــولا ...

❋ ❋ ❋

ــ اعرف كل اسرارك ، ولست براغبة فى القـــول حول ، وعن، اداة الوصل ... لن اكشف النقـــاب عنها ٠

ــ هــه ٠

ــ تتصنـــــع ٠

ادرك بحاستي لمثل اللاحظة انى فى عـــراك ، وان الخصم قوى الشكيمة ، يلقى عصا التسيار ، ويخطف رجليه قبـــــل الخطـــوة الثانيـــة ٠

ــ اعيـــدى قولـــك

ــ (صمـــــت)

لا يغرب عن ذهني رفـــة رمش انني فى حضرة التـــــى تعجبنى ٠ تمسك خيوطى السرية ٠ فأصبح اراجوزا ، اخرق ، يضحك من حولـــه ولا يمتلك نفســـه من الضحك ، كـــم مرة قلت لنفسي بأن تقلـــع عن الاراجوزية ، حتى لا اضحك مـــن نفسي ... انما تعجبنى ، كلمـــات قليلـــة بسمـــة رقيقـــة ، عذبة ، هـــدؤ ، وبعض من كذب ٠

ــ اريد ان اقول لك شيـــا ... لكن ...

ــ لكـــن مـــاذا ؟

— فى الحقيقــة ... ليس الامــر مهما ، ولا هو كمــا تبــادر الى ذهنــك ، لا تعجب للامــر .

* * *

كانت المناكب تتدفق جهتي كنت اشعر بأزيــز ذوى يشق دماغى . اشم رائحة تشبه رائحة الــدم ، يعبق بها المعبــر . العرق ايضا ، هنا رائحتــه العظيمــة . العرق ... اكــاد اغرق فى عرقى ، وعرق الاخرين . يسيــل لعابي مرا مخلوطا بالــدم . وأجدنى مضطر لانّ انــزع انفاسي من اعماقى لكــي أعبر آخر خطوة ، نحــو فضاء معتــم . يملاه الدخان الكثيف . يحتــرق جراد كبير الحجم . كثير . لا يقتــرب من منطقــــة المناكــب ، هناك تتــردد آهات امرأة فى اواخر العمر . تركها ابنهــا عائــدا الي بلدتهمــا البعيــدة لامر ما ، كانت مريضة ... انها مريضة . هرمة . يسمع حفيف عظامها . أنينها دبدبات دقيقة فى صدرى ، ولا امالــك شيئــا الا ...

* * *

يغمرنــى شعور بالفــرح (فــرح) القريب الذى ينتابنى كلما كان الليل ساجيا ، والقوم نيــام ، وانــا ذرات هــائمة فى الابعاد كلها ... هذا الشعور اعرفه . يغمرنى كضيــاء كهالــة رب موسى عندما لاقاه ، موسى ، على الجبل/جبل/ فى فلــم الوصايا العشر ، اسبح ، تهيم دواخلى نشوانة تريــد اللحــاق بالمليل صوت خلياتى التى لم تــأت كما اتفقنــــا يــوم الاربعــاء ...

تقطع لحظتى بقرقعة بــاب الغرفة المجــاورة ، اظنهــا محاولة من القطة لتدخلها . لتحتل «احتلالا» حضن صغير مــن صغــار اخــى .

تتابع أنات المـــرأة الزائرة ... تقفز الى دماغى صورة ابنهـــا وهو يحكى فى بـــراءة .

ـــ ... عندما قال لي مساعد الطبيب ان اعطيـــــــه فلوس العشاء ، مددت له ورقة من فئة خمسة آلاف فرنـــك (لم يقل سنتيم . اظنه لا يعلم بالتغير الحاصل)

أدار وجهـــه منقبـــا عن اعجاب مستمعيه ، على ، وفى سماهم . كنا خمسة والقطة سادستنا . وجد كل الوجود ... كل العيون ... فى خدمتـــه ، الدهشة ، والرغبة حافزاه للمزيد من الحكاية/الحادثة. حتى القطة كانت تحملق فى وجهـــــه ذى السحنة الغريبة ... قد تكون اسـم تألفـــه بعـــد ، حركـــت القطة ذيلها ... ركزت عليه عيناها .. تشجع فأتمـــم .

ـــ أتدرون مـــاذا وقـــع ؟

سألته امى بعد أن كانت مقدمـــة السؤال بسمة ، ورفعا الحاجبيـــن .

ـــ مـــاذا وقـــع ؟

ـــ هه ... أتانى ب كوميسره وتيـــد .

ـــ فقـــط !؟ سألتـــه .

ـــ فقـــط .

أتمـــم بعـــد هنيهـــة .

ـــ اتـــدرون مـــاذا وقع الباقى من خمسة الاف فرنك ؟

قالها موسعا حدقتيه، وفاغرا فاه. وتدخلت من جديد.

ـــ مـــاذا وقـــع للباقـــى ؟

ـ لم يعطنى منها ولو فرنكا واحدا ... ياعباد الله ... اقسم لكم اننى كـدت ... كدت أجـن .

عقيرته كانـت ممتـدة نحو السمـاء .

تدخلـت أمـى .

عليـك ان تطلب منه الباقى .. حينهـا .. فى ذلـك الوقـت أليس كذلـك يـا ...

لم تجـد ابنتها بجانبها . فقد تخلت تلك عن الجماعـة اذ كان هناك من يـدق الباب الخارجى فذهبت ...

يتمزق منه الوجه والكلمة ، كنت حينها استمع لكل كلامه بدون ذرة اشفـاق ... اكره ان اشفق على احد وأكـسـره العكس ... أكره الاشفاق على الذات نفسها . كان عليه ان يطلـب الباقي .. ان يلـح فى طلب دراهمه ...

... انتقل شريطى الدماغي الى الاهتمام بموعدى معها .. كان اليوم اربعـاء ... عندما ذهبت اليها لم تكن هناك ..ـ كانت الشجرة الوحيدة الباقية فى مكان مواعيدنا قد بدأها الفأس هاهى آثاره قرب جذرها ... على فرعها المقابل للشمس وهى تغرب ، الان ، عصفـور وحيد بنظـر ميمنة وميسـرة ... كـان مبتـلا ، وحزينـا .

تتواصل دقات الساعة ... انيـن المرأة الزائـرة يصلني متقطعا ، نباح الكلاب بالخارج يستمد من حلكـة الليل قوتـه ... هل يا ترى تنـام الكلام ليـلا لتخفى خوفهـا من كلاب الفعل حتى لا يمكر بها .. وينكل بها ؟ انا لا ادرى ... قد يكـون ذلك صحيحا ... اذ لا زالت حكاية امي تملأ ركنـا من ذاكرتى الصغيرة ، الخشنة ... الغير المتجدرة ... عن :

كاب كان /يعمل/ حارسا لبستان به عنب، وتفـــــاح، واجاص ، ومشمش ، وكرز ، وكرنب ، ومزاح ، وموز و.... (راجع : احمد بوكماخ : اقراء : الاجزاء الخمسة) وعســـــل . هذا الاخير (العسل) كان مما يـــروق لصاحبنا الكلــــب ان يتذوقه ... ويذوقه. كلما كان النحل غائبـــا عن التفيـــر ... بالطبع .. طالما قرصه النحل برفق ليترك هذا / الحـــارس / افعاله/هاته . لكن الكلب لا ينتهي ... الكلاب عـــادة لا تنتهى من افعالها الا اذا كان رد الفعل . بطشا قويا . على كل حال، هذا الكلـــب /قـــرر/ يوما الاكل مما هو غير العســـــل ، و / قرر / ايضا ان لا يرهق ذاته بحراسه اشياء ليس له نيها اى شيء ، اضف الي هذا ان النسيـــم ، العليل ، غـــازل مخيلته، وكانت الليلة مقمـــرة . فاوحي هذا النسيم ، العليل ، لصاحبنا بأن يعـــوض خسارته ، اذ خليلتـــه لم يظهر لها ف ذلـــــك اليـــوم اثـــر .

تمـــدد الكلـــب ، داخل قفير للعسل ، قال . واستحث ذاكرة لتستحضر صورة خليلته ، ليقضي معها ليلـــة مقمـــرة، عليلـــة النسيم ... اقتربت منه خليلته ... نحى عنها/وجهه/ ... عاودت الكرة ... تمنع ... واستقر على شكل دمخرة ، جامدا ، /مقررا/ عـــدم الحركة ، اذ فى ذلك تعذيب لخليلته ، وعقاب لها علي اخلافها الموعـــد ... لكن اهتزازه زاد قيلـــلا عن هز ممكن صدوره عن تمســـح خليلته .

استفاق صاحبنا الكلب ، فوجـــد نفسه داخل كيـــس من القنب . محمولا على ظهر مجهول ، يجرى ، يتعثـــر ... أسقـــط فى يد الكلب صاحبكم . فما كان منه الا ان ســـارع بشحن اليـــات الصياح بشحنات متوالية من الفـــزع ، اســـرع ذلك كله ، فى تناسق غريـــب الي منبهات النبـــاح ... انطلـــق

النباح ... علا النبـــاح ... اشعل الكلب مصابيح الخطر ، هذه المصابيح ذات لـــون ابيض ... تدفق النبـــاح مدرارا . توقـــف الذى يجـــرى حاملا الكيس . والذى تعثر ، ثم تشقلب، وتربع ، وقـــام واقفا ، شـاتمـــا ، لاعنا جد جداد الكلاب ... وامتدت يـــداه الى أكبر الاحجـــار . والتى كانت على مقربـــة منه ، اكبرها حجما ، واثقلها وزنا ، وأبلغها تهشيما ... تلقاه الكلب المسكيـــن ، صاحبكم ، على ظهره رأسه ، دراعيـــه ، وخيشومه ... فكف المسكين عن النبـــاح ، ولم يكن الصباح قـــد لاح .

— كنت اظنني حاملا قفيرا ، بثقله ظننتني سأصبح غيـــر ذى حاجة لمـــال عـــذاب الجحيم ... آه يـــارب .

تنفس «اللص» الصعداء ... رغم ما وقع ، هـــــــرول مسرعا ، حامـــدا ربه ، لكون الكلب صاحبكم ، لم ينبح قبـــل هذا الوقـــت ، اذ لو فعل ذلك ، لكان من الذيـــن سيسلمـــون غـــدا لرجـــال الـــدرك ... رجال الـــدرك ... !

اما صاحبكم الكلـــب فقـــد بدأت تلـــك النجـــوم ، التى كانـــت بالوانها المتعددة ، واشكالها الغريبة ، تفـــارق رأسه، بعد ان احدثه مدارا لها ، ومنبعا لها ، لبعـــض الوقت ... قال الكـــب صاحبكم فى قـــراره نفسه ... والله اعلـــم :

— اذن انا احمي نفسى بنباحي ، ونباحى يحمى املاك الاخريـــن ... آه ... وجدتها .

* * *

آهات المرأة الزائـــرة تصلني وقد ازدادت عمقا ، وانتظمت ايقاعا ، فشكلـــت نسقـــا ، يبمـــد عن أذنى انها تعبير الـــم .

المرأة تتألـم ، واللص يتألـم والكلب يتألـم ... تعجبت مـن منطق الكلـب صاحبكم . انه اكتشف الجدل ... جدل كلبي ... اذن كل الكـلاب تحمى نفسها بحماية اسيادها ... أسيادهـا يحمونهـا .

لم تأت خايلتـي ، ولكوني لم أعـد اقتنـع بالصور ، اذ هي تتسـرب كدخان ازرق ، ينفلـت ... ولكوني لا اريد مثـل مقلب الكلب صاحبكم ، فقد اكتفيت ، بأن اكتفى ، بسمـاع نباح الكلاب الذى لا ينقطع الا لفتـرات قصيرة جـدا . يصلني هـذا النبـاح عبـر نافـذة ، زجاجها اخضر اللون . ينبعث منهـا ، النـور الاخضر كل صباح مشـرق ... اسعد به . اذ ينشـر فى اعماقي نورا ... سلامـا . اتخيله كنور وجه خليلتي التى... تتواصـل دقـات الساعة ، ويتهاوى دخان سيجارتـي ... تتهاوى خيوط الدخـان دوما . تتشكل صورة كلب هزيـل ، طويل الجسد ، عظامه بـارزة بشكل يذكرني بهياكل بشرية تسكن «بنغلاديـش» الكبـرى . الممتـدة كالاخطبوط من هنا الـى هناك ، الى ذاك المكـان ، حتى آخـر المستطيل .

هذا الكلـب الهزيل تجـره ، من جلد عنقه يـد ، تشبه فى نحافتها ، دراع الكلـب المجرور من جلد عنقـه .

يتوقف /صاحب/ الكاب ليعترض على كلام /منتقديه/ من بعـض ابنـاء الـدرب .

ــ تقولون انه لا يأكل جيـدا ... انني كل صباح آتيـه بنصف لتـر من الحليـب ... اضف الي هذا انني اغسلـه يوميا ، بل ان امى قـد اوصت نجارا (لسم يتمـم) .

ــ ها ها ها .. ها ها ها ها

الضحك ... الضحـــك ... تلك الطعنة التى كـــان يحســـن توجيهها «مولييـــر» ليزيـــد جرح نظام ينهـــار ، عمقا ، وايلاما ... ان تحسن الضحك معناه انك كشفت تلك الخيوط العنكبوتية التي توهم اصحاب قيم ، بأنهم مشدودون الى السماء ، وهم على الارض ، بفعل جـاذبية القيـم ، تثبتهم على الارض ، وتشدهـم الى السماء شـدا . معناه انك كشفت ، علاقة غير ضرورية ، لا موجودة ... ولا هى بالتى تعفيهم ، من قـوة جاذبيـة القمـر ... معنـاه ايضا انـك كشفـت انهم معلقون فى الخـواء ، وكشفت زيف دعواهم ... وتجدهـم رغم عوائهـم يقصدون ، بفعل جاذبيـة الجحيم ، العـرق... المناكب ... التدافع ... قعر الجحيم ... معناه انـك كشفت ، عرفـت ، اسرار ثقة صنعتها الارض وبشرها ، نصاغتهـا غلالات من الدخان الرقيق ، الدقيـق ... وخيوط الدخان دومـا تتهاوى ، تتمـزق امام اول نفحـة ريـح تعـرف من اين تبدأ أبجدية التفجير لأفلك ... آه / ابسن / لا تفرك تلك الثقة . ان وثقـت انّ السخرية/الضحك ، سلاح نافذ ضد كل هذا الزيف الذى لا يحميه الا كلاب لم يكتشفوا بعد ، الجـدل الكلبى ... كلاب يحتاجون ليحموا نفسهم ، يحتاجون لحماية الاسيـاد ، والاسياد ... نعود لمنطق الكلب الجدلـى .

عنوان الجفاف الاسود يطلـي وجودك ، وتريد ان تحمـى ذاتك من الطعن النافذ ... الضحك ... لو كان كلبك يا مسكين يشرب حليبا ... ويغسل منه الجسم يوميا لما انقض علـى عظمة تآكلت بفعل / الذعن / ... أم كذلك كلبك اعمت عينـاه شظايا قتابـل الجوع ولا تعترف ، اعترف ، وافعل شيئا ... أولا تعتـرف وافعل شيئا .

عندما أخبره الاخرون ان الكلـب سعي لعظمة ممكـن

اعتبارها من بقايا اجدادنا ، اجدادكم ، الاولين ، هرع اليه مسرعا ، كسهم اطلق من ... لا ... لا ... كصاروخ اطلق من قاعدته ... حاول نـزع العظمة ... بفعل الجوع ، الغضب، حماية الذات ، ودافع البقاء ، والكرامة (ان كان للكلب ، للحيوان كرامة ، قيل «الانسان») تتابعت طقطقات اسنان الكلب فى سرعة مذهلة ... كشد انبتت تلك الاسنان فى اعماق جلد الرجل النحيفة ... حتى العظم ؛ الرجل التى صاح صاحبها :

ـ اماه ، اساه ، رجلاه ، رباه .

فر الواقفون ، سبقهم الكلب المفزوع من هول الموقف ، او شىء آخر ، سبقهم فارا ، بفعل الجوع ، الغضب ، حماية الذات ، ودافع البقاء ، فر واسنانه منبتة على العظمة متخيلا فيها منهشا .

* * *

سمع ارتطام قوى ، خالطه عواء خافت يائس . كان الكلب مطحون الراس ، اختلط الدم بالجلد ، بالعظم ، والعظمة. انسلت روح الكلب متحررة من /سجنها/ وهى تحم بجنة العظام ، كما حلم ثعلب بجنة عنب ، كما حلم فأر بجنة الفئران ، كما يحلم اناس بجنة ، خبز ، وعدل ، وحب ، وسلام، واخوة ، وعلم ، و ...

روح الكلب انسلت تحلم بجنة عظام خالية من السيارات الهائجة والتى لا يعرف اصحابها انّ هناك راجلين ... وكان الطرق ما صنعت الا لهم وحدهم ، دون غيرهم ... كما يحلم اناس بجنة خالية من القمع ، والسجون ، والطرد من المدارس ، والمعاهد ، خالية من الحواجز ... و ... آمين .

تبخرت الصورة ، وأنا اتمنى للكلب لحمـا طريا وعنايـة ، مثل عناية «بريجيت باردو» بالقتمة ، لا عظاما نكرة ، نخرة ... وامتـد امامى خيط دخـان سيجارتى . دقات الساعة تتواصل، وسعال أحد الجيران وصل سمعى . كانت الساعة الرابعـة والنصف صباحا بالتمام . صافية . والجو على العموم معتـدل يغرى بالسهر حتي الصباح ، ويغرى بالخروج الي (جامع الفناء) لتناول قهـوة ساخنة ، سوداء بالطبع ، يغرى برؤيـة النـاس وهم ينزلون من سيارات السفـر ، وهم يصعدون الي اخرى... الابتسـام ... الوداع ... بعض الدموع ... يا لروعة اللقاء بعـد غياب ... ركام من كتب ، واخرى مبعثرة هنا وهناك ... قررت قبل خروجي ان اجمعها ، وأرتبها فى امكنتهـا الخاصة ... غير بعيد عن موطئي قدمى كان مقص لم الاحظ وجوده الا الان . تذكـرت اني قطعت به لصاقا ، الصقت به ضمادا لعين الزائرة.

عملية جراحية اتت على ثمن محصول سنوات جفـاف . سنوات من العمل الشاق . حفر ، حرث ، سقى ، زرع . حصاد، درس ، تعب ، عـرق ، موت بالمجان على قمم عالية معزولـة لاناس كأنما قدرهم النفي منذ عرفوا اول ... لن استمر ، هذا يجرني الى اشيـاء لم يحن بعـد اوانها . تحفر فى كيانـى وجودها ، تستعبدني حتي الموت ، تخنقنى ... وتمتد ايـادى كثيرة ، كثيرة جدا ، كثـرة جراد ذكره «يوحنا» فى رؤيـاه . اعرف احداها . نعـم اعرفها . سوف اتذكـر لمن هـى ... هذه اخـرى اعرفهـا .

الاولى : مساعـد الطبيب الجـراح .

الثانيـة : للطبيـب الجـراح .

المساعد الذى اعطى لابن الزائـرة «كوميرة» وزبـدا ، واحتفظ بالباقى من خمسة الاف فرنك (سنتيم) ... تحتـرق

دواخلي كما تحتــرق سيجارتي بين يــدى ... لا يبقى فيها الا الرماد ... هذا الرماد يخلق لى دواخلا ، تنبعث منه دواخلى .. مثلما يحـــدث فى تلك الاسطورة ... لكنها دواخلي انا ؛ لا الطائر الاسطـــورى الذى يحتـــرق ، وينبعث من رمـــاده .

اليد التى تلبس قفازا ، تمتد للعين ، وتمتد للجيب بدون / رحمة / ... انه الذبح اليومى لكـــل المنفيين فى المربعـــات او المستطيلات ... او ... نفى فى الداخل والخارج هنـــاك ، هنا ، نفى للنفى يتبلور ... النفى عند جـــلاد ، سجـــان ، او بائـــع بالجملة ، او بالتقسيط ، لا يهم ، الامر سيـــان ... انغلـــق داخل شرنقة كبيـــرة يدعوها انجغرافيون ، ارضا ... اسميها شرنقة ... بل ذاتا ، تأكلها الديدان الســـــــــوداء ، والبيضاء ، وتخنقها الايادى الممتـــدة ، كل شهر ، كـــل عـــام ، كل الاعوام ، كل الدقائق ... افـــلا يقـــال انه امتـــدت اليـــه يـــد ... اتذكر انضماد ... عملية بسيطة ، ثمنهـــا عـــرق اســـرة ، يد واحـــدة ، وعشرة ايـــدى ... الاف الايادى ... بضعة ايـــادى ... عيون تريد النـــور ... النور بالدرهم .

— عيـــون تريـــد النـــور

— النـــور بالدرهـــم

كل شـىء للبيـــع ... حتي نور الشمس ان كنتم — ان كنت — لا أعلم ... صرت اعلـــم ... غدا يصـــير الهـــواء بالدرهـــم ، ومن يدرى ؟ من يـــدرى ؟

الف من عيون... الاف من عيون. اضحك بأعلى صوتى.. اضحك ... أضحك ... اتوقف ، وانصت . كان هناك صوت يأتي من خلال النافذة الخضراء . صوت يعلن شيئا ما . كـــان وحيدا يشق رقة الليـــل ، استمر ، ولا انصاع للصوت الخارجى

الوحيد ... نذوب الوجه المحترق تئز ، وصرت اكره لعبة الاعماق ... خداع الذات والاخرين ... غدا قد يضعون على ظهرك سرجا ، (ان لم يكونوا قد وضعوه) ويربطون جزرة ، او لفتة ، او قشرة خبز ، او بصلة ، يربطون احد هذه (الاشياء) بخيط ، يربطون الخيط بقصبة ... يضعون (الشيء) المعلق أمامك ، تمضي ... تسير لتدرك المعلق ... تصبح ، تضحى ، تمسي ، معلقا ... لا (المعلق) جاء بين اضراسك ، ولا كانت الراحة من نصيبك ... يئز دماغي ... يجتاحني شعور غريب جدا . كل شيء ممكن ، ولا شيء بعاصٍ امام (الناس) ، لا شيء بثابت ، هكذا ردد ذاك الشيخ . السر كل السر في ان لا يتوقف الدم ، فليس يحمي الوهم العنكبوتي من يتوهم السيادة المطلقة ، فحتى لو عصروني حتى نفاد الصبر سيبقى الدم يتدفق ... يتدفق ... فكانت الانهار تسمع هديرها ... مددت يدي ، خنقت عنقا ممتدا ، متطاولا ، عبر المناكب المتدافعة ، المقتربة من فضاء ، واسع معتم تنبعث منه رائحة الجراد المحترق ، تتشكل فيه حيوانات ذات اجنحة ، تصيح مخنوقة وقد هدتها بلادة البطون المنتفخة ... يستمر الازيز ، واجثو على ركبتي كي امنح كلب «دستويفسكي» حياته الابدية . فأنا لم اقبل له ان يحتنط كما اقترح الالماني المنتفخ الاوداج .

كلاب تنبح ... انتفخ احدها بصورة مذهلة ... بطنه تدلى في رفة عين ... يضحك هذا الكلب ... كانت حشرات قد طاردته ... ضحكت من فعل الحشرات ... الكلب المهزوم ينتفخ ... بطنه يتشقق قليلا ، قليلا ، ثم ازداد انتفاخا ، انتفاخا ... وفجأة دوى انفجار بطن ينتفخ بلا مشروعية .

بدأت الديكة صياحها ... قد تكون بدأت من قبل ، وقد

اكون لم انتبــه لذلك . كنت امتص سيجارتي ، وارقب دخانهــا المتهاوى ... خيوط الدخان تتهاوى دوما ... ويظهر ...

* * *

تتوالى دقات الساعة الموضوعة امام المذياع ، تتهــاوى خيوط دخان سيجارتى المتحولة . زادت حــدة دقات الساعة ، تتزايــد ... تتزايــد ... شككت فى امرهــا فاقتربت منها ... آه ... قنبلــة ربما ، ستنــ فاجــر

تساءلــت من يكون قد وضعها هنا ؟

— كلــب ؟

— فــأر ؟

— جــرادة ؟

— . . . . ؟

— قد يكون كلبا اسودا ، ضخما ، أو نحيفا ، أبيضا !

— قد يكــونــان معــا ؟

— قد أكون انــا الذى وضعتهــا ؟

— لكن من أين لى بقنبلــة ؟

— لا ادرى

— قد لا تكــون قنبلــة ؟

استنجدت بأحدهم كان قد تشكل من دخان سيجارتـــى ، اقترب مني فأخبرنى باقتضــاب .

— أنا قابــت الصفحة ، واثرت نمهة ، ونسيت مسغية.. وليســت لى خبــرة ... ثم لا شأن لي بهــذا .

انصرف عني ... تشكل آخر ... اخرى ... آخرون... كانوا يرددون نفس الكلمات على نفس الوزن ، وبنفس الايقاع و ...

أردت الاستنجاد بالنيام ... لكن قد يفجرها صوتي ... حركتي ... لماذا ابقى واقفا هنا بدون حركة ... الحركه ممنوعة اخبرني صوت .

ــ ماذا افعل ؟

لم يكن هناك غير الصمت كجواب .

جريت خارجا ، كانت هناك بالباب مناكب ... عرق ... الهرب والعرق ... الدخان الكثيف ، السماء حمراء بفعل الغضب ... تتجارى الاقدام ... ينطرح الاقزام . من يغلفهم الوهم ، اختلطوا ، وجوه كثيرة نكرة ... اخرى كسيرة ... الكل يحاول الهرب ... الا عصفور وعصفورة ، مبللان بالمطر ، كانا على شجرة ليس بها اثر لخدش ... يتحدثان ... يتهامسان ... كانت الارض بساطا اخضر ... هناك فراشات مختلفة اللون ... هناك غير بعيد مجرى صغير ، خريره ، ينعش النفس ، ويبعث قشعريرة خفيفة ، وفرحة كبرى ، ... ومن خلف النافذة الخضراء ، كانت الانوار الخضراء ، تتلاحق ذراتها نجوم ... فضاء واسع ... واشياء اخرى

بخروب عمر

الجحيم

أقصوصة :

أحمد المصباحي

موضوعه امامه على المكتب يجيل فيها النظر ، باذلا جهدا شاقا لتمالك أعصابه ويسيطر على الموقف . الزيادة فى الاجور . رفع التعويضات المائلية . حق الضمان الاجتماعي . حق الانتماء النقابى . التقاعد . العطلة السنوية ، واللائحة تتحداه بقائمتها الطويلة ، يمسحها بعينيه هبوطا وصعدا لا يستوعب حرفا . ولالحته هو ، المطمئنة بالدرج الاوسط لمكتبه لمن يعرضها لأ من سيطلع على شروطها ؟ بهذه السرعة يستسلم ويدع قصر أحلامه ، شيده على صفحتها يتهاوى طابقا بعد طابق ؟ أين التجربة الفنية تمده بالحلول الشيطانية يحبط بها خططهم فى كل مناسبة طالبوه بتحسين حالتهم المادية ؟ تزعزعت ثقته باستحالة عن أى تنازل مهما يكن تافها ، تحسبا من انجرانه وراء طوفان المطالب تفضى به الى الخراب . غير رايه مرغما والا أدى به العناد الى ما سوف يندم عليه طول حياته ! كيف لا وكابوس الافلاس كالظل لا يفارقه ، فشلت

محاولات تناسيه بما امتلك من أمكانيــات الترفيه والتسلية . بددت سحبه سنوه نجاحه فى توريطهم للقيــام بالاضراب كما اراده . ليصحو على حقيقه مروعه ، استمرار الاضراب شهورا استبعدها من دائره احتمالاته ؛ وهو يزور المعمل صباحا ، تقليد صــار عليه منذ تاسيس الشركه ، يرعبه ما يخيم على قبــوه من اقصاه الى أقصاه من صمت رهيب كانه عمــلاق اسطورى يقبض بيد حديدية على سوط من نار يكمم به افواه الاليــات ، بالامس كان ضجيجها يحدث هديراً مصما ، حبيبا الى قلبـــه . باصابعه العشره يتحسس ذرات الصدأ ، تنخر كيان الماكينات، تعيث فيها فسادا لن تصلح بعده لشىء وقتئذ فليلق بنفسه الى الجحيم . لا يحتمل اتمام الجولة انفاسه تختنق ، الارض تميد من تحت قدميه ، غلالة قاتمه تعشو بصره .. يسرع بخطواته هربا الى الخارج ، قبل ان يسقط صريعا تحت أقدام آلياته ، جثة هــامــدة .

عاكف على اللائحة ، لا يرفع عنها راسه ، يدخن لفافة تلــو اخرى ، يترنح فى جلسته كانه غير جالس على مقعد وثير هزاز بل على رزمة من الابر ذات رؤوس حادة . يقذف مــن منخريه زفرات متأوهة ، تستثير أعصاب مندوب العمال ، جالسا قبالته ، لا ينبس بحرف ولا يأتى حركة ، يرصد ملامح الخصم فى موقفه الحرج . « جربنا معه كل الطرق لتحقيق قسط مــن حقوقنــا . أيا منها ما حرك فيه أدنــى رغبة لتدارك ســوء حالتنــا . راسلنا الدوائر المسؤولية من مستويات متفاوتة فكان الجواب واحدا وان جاء بصيغ مختلفة . هددناه بالاضراب ، واجهنــا بأسلوب جديد لم يخف علينا ، عشيــة قررنــا الا نتراجع فى نضالنا ، استغنى فيه عن استعمال عملائه دسهم بيننا ، لخلق البلبلة فى صفوفنا وأسفر عن وجهه القذر ، يطلعنا بقراره ، تعمد الضغط على حروفه « من أراد العمل بالشروط

ابراهنه . اهلا وسهلا ومن طمع فيها احسن مان ادارة الشركة غير راغبة فيه من الان » لهجته عن انه حسب لقراره حسابها دقيقا ، يعرف بازدحام عدد المعامل اقفلت ابوابها ، ملقيه بعمالها الى عرض الشارع ، تعزز بهم صفوف الجياع يستوى فيها الامى بحامل الشهادة الجامعية . سينتقى ، وباثمان رخيصة ، فالطلب يفوق العرض ، سواعد مفتوله ، وكفاءات منتجة ، ستضطرنا العودة اليه مطاطيء الرؤوس كما توقع ، انئذ سيستل لاتحنه ، يصفعنا بشروطه القاسيه ، تمعن فى تجريدنا عن بصيص النور كما نحظى به . مسكين ! نوجيء ، صمودنا يعصف بشرهه ، ماذا خسرنا لما اضربنا ؟ هل ندمنا على بيع ما وقعت عليه عيوننا من اثاث منزلى ؟ هل أراقنا دماء وجوهنا ونحن نطرق ابواب الغير ، نستدين منهم أن نرهن لديهم ما عز علينا بيعه ، لسد حاجيات يوم او يومين على أبعد تقدير ؟ تلك حياتنا قبل الاضراب وبعده ، منذ تسلمنا أول اجرة هزيلة لا نفى بالقليل او بالكثير ... اما هو فقد خسر الكثير ومقبل على خسارة اسمه ، مركزه الاجتماعى ، آه .. طاطأ رأسه صاغرا للتحاور معنا .»

انتبه ممثل العمل بزاوية طرفه الى ساعة يده ، مر وقت طويل دون حصول تقدم ملموس فى المفاوضات . العمال بالمقهى ينتظرون . تحلقوا حول مائدة تقوصت قوائمها ، مهددة بالسقوط من حين لآخر ، لا يرحمون شيخوختها يرهقونها بمزيد من الطلبات : سطحها لا يجد متنفسا ، الا لحظة امتداد يد احدهم لجرعة شاى مفرط الحلاوة تدفع مرارة مذاق السيجارة يبقى عالقا بطرف اللسان . طوقتها الكراسى من كافة جوانبها ، بشكل فوضوى لا يعرف الاستقرار . سيل العمال يتدفق باستمرار يتضاعف من تدهور الجالسين الاوائل . الدائرة تنمو ويتسع حيزها ، عرقل تنقلات النادل النشطة تلسعه من وراء الحاجز

الخشبى نظرات تقدحان شررا توارت خلفه فرحة صاحبها ، هبت على مقهاه ريح الازدهار ، ماكان يجرى فى حسبانـــه ، يستنزف من الجماعة المتشبثة بالمائدة ما توفر أو لم يتوفر من سنتيمات لا مفر لها منها ، فالمقهى أنسب مكان لعقد اللقاءات . المعمل رفض مالكه أن تدنس ارضه اقدام المضربين . الاجتماع بالمنزل سيحق بحرا من الشبهات لا قرار له . كما جرى الاتفاق، احتمل عدد الحاضرين لمدارس حصيله الحوار مع رب المعمل اذعن لهـا ، ولاول مره من اعلان الاضراب ، صاحب المقهى ، غير مرتاح للخبر ، يردد فى سره ادعيه يتوجه بها الى السمـاء ان تستجيب له فينفض الجمع بلا نتيجه لئلا تعود المقهى الى روتينهـا القاتل لا يشفي غليله من المداخيل المرتفعة جناهـا ابـان الاضراب ، على خلاف غيرهم . لو ظلوا طيلة حيـاتهم مطرودين من العمل لبقوا اوفياء لاداء ثمن المواد التى يستهلكونها بمجرد ان يعثر الواحد منهم على مقعد يستريح عليه ، لا يردون سـائلا خاوى اليدين ، يتقاسمون واياه ما نبعثر بقعر الجيب من سنتيمات صامده . عارضوا الابسة المتجولون يستعيـدون حيويتهم بمصادفتهم العمال المتجمعين ببذلاتهم الزرق يبيعونهـم سلعهم بأثمان لا تضر بالطرفين اذا ما أعوز رفيق منهم تسديد المبلغ المطلوب تضافرت جهود الجماعة لتغلب عليه . ينفقـون القليل يحصلون عليه من هنا وهناك ، ويغادرون المقهى بجيوبهم فـارغة ، وفى الغد كعادتهم مهللة وجوههم كأن كنزا صادفوه فى طريقهم اليها . لولا ظروف المهنة ، تشرب أصولها فى اليوم الذى فتح فيه عينيه على الدنيا ، تفرض عليه اقامة حاجز سميك بينه وبين زبنائه ، لا نفرد بعامل او اثنين يدلاله على سر بسطهم اليـد والنفس معا ، وهم ما فيه من فقر يفى مظهرهم الخارجى للتعبير عنه ، حين لا يكون ما يستدعى انشغال باله ، يستغرق متأملا فى أمرهم وما يلحمهم من رباط قوى يفتقده شخصيا بين

اقرب الناس اليه ، يبذرون بسخاء كبير على بعضهم بعضا ، ويسرحون عائلاتهم تغوص فى وحل الفقر . الا تباغتهم ، كما يحدث له صور مآسى القدر المفاجئة تنقض على المرء ، لا يرى جبينه بماذا ابتلى ؟ لا يفحه من قبضتها الا الدرهم الابيض لليوم الاسود . لو احسنوا تصريف مرتباتهم لكانوا مثلى او افضل . ويشتد به الحماس ، يكاد يصرخ فيهم شمتنا « ايها العاقلون . انظروا الى الثراء درته على المقهى تحتقرونها وصاحبها لم يكن فى ابدأية ، يملك سواها . واليوم شتان بين الحاضر والماضي كل سنتيم يجرى فى مجراه المرسوم له سلفا ، لا يحول اتجاهه طارىء مهما بلغ خطره . انتم وامثالكم ....

صعقته ضجة رجت المكان . تمزق فضاءه صيحات مجلجلة « عاش العمال . انتصرنا . يموت الخونة . عاشت الوحدة » مضت دقائق شرع الصمت ينشر ألويته الكئيبة على المقهى وعلى صاحبها ، جمد فى مكانه وراء الحاجز لا يريم كالتمثال ، يشيع بنظراته موكب العمال يتضوع منهم شدى الانتصار وتحف بهم هالة المجد ....

احمد المصباحى .

السور والناس والنهر

قصـــة قصيــرة

مصطفى اجماهري

الساعة الخامسة من مســـاء يوم خريفى • مع ذلـــك • • استسلمت المدينة لنوم طاغ • بدت كقلعة منسية فى جغرافيـــة القرون الوسطى • سيطر عليها السكون سيطرة مريبة • والحراس متمركزون فى مواقعهم المعتادة • ينظرون من الشرفات وأصابعهم على الزناد •

كانت هناك تستريح على سعفات النخيل • ونهر أم الربيع ينساب بصفىء أخاذ ثم ينعطف فى رفق عند القنطرة الى اليمين صوب المصب • محاذيا سور مدينة آزمور البالية •

فى ضفة النهر بالطحالب ونباتات أخرى مختلفة ، رحـــت أراقب فى صمت واشتياق قوارب الصيد الخشبية الصغيرة ذات المجاديف فى أوبتها من رحلة القوت اليومى • جميـــع القوارب — على قلتها — عادت نحو الضفة الجنوبية للنهر الممتدة على

طول السور الاسطورة . والاشعة المترددة النافرة من قــرص الشمس المتجهة وراء البيوتات المكدسة الخربة تنعكس على وجوه الصيادين التى جعلت منها الخصاصة عظاما بلا هوية آدمية .

اقترب صياد من اليابسة . كان أشيب الرأس : فى عــز سنوات الشيخوخة . وبشق الانفس صار يجر قــاربه الصغير الى الضفة . أنفق وقتا كثيرا وهو يغلب وعورة الجدب . وفى كل جرة كان يبعث آهة مبحوحة . صدم زفيره صماغ أذنى . تحركت فى أعماقى لجة من العواطف . عزمت على مساعدته . وبحكم شخصيتى المتواضعة المقيت كل أشكال التفرج والانانية . ممت . وشددت بيدى على الحبل . الى جانب يديه المخشوشنتين الجفتين حطعنى خشب تعرضتا لحرارة لافحة . وبدأنا نجر القارب معا فوق الارض المتشبعة بالرطوبة . لون القارب استحال من ازرق الى بنى بفعل الماء وعوامل الطبيعة الاخرى . فــى نهايته ، قبض على رأس الحبل وشده الى عمود خشبى خاص لهذا القارب . انحنى الى الامام . اخذ من القارب سلة كبيرة من القصب وضعها فوق ظهره المقوس . لاحظت بانها شبه فارغة الا من بعض الاسماك الصغيرة وأخرى متوسطة الحجــم .. حصيلة نهار كامل من الصبر والمعاناة .

ظل الصياد يسترد أنفاسه اللاهثة تدريجيا . من رأســه المنعكس فى تعب . حدجنى بعين جافة طفرت منها نظرات رضى .. مرت لحظات قلال ران فيها بيننا صمت خانق . بادرت بالقول :

ـــ الصمت هنا يبعث على القلق !

أدخل الصياد الطاعن فى السن ، يده الى جيب سروالــه الجلدى . أخرج منه قارورة صغيرة من الشــوق . دس منــه

شيئا فى أنفسه • ثم كح وعطس وبصق على الارض • حمد الله • وأجابنى بصوت مختلج يشى بالضعف :

ــ ان القلق هو الذى يبعث الصمت يابنى ••

ــ كيف ذلك ؟

ــ الصمت لغة نتحدثها ، والكلام لغة حرجة •

ــ ولكن الكلام ضرورة تواصل ؟

ــ أنت غريب عن المدينة ، وتجهل أشياء كثيرة •

ــ فقط أريد أن أعــرف الحقيقة •

تنهد الصياد مشيحا بوجهه عنى • التفت حواليه ثم اقترب منى وقال وهو يشير بيده الى النهر :

ــ فى جوف هذا النهر تكمن الحقيقة •• الحقيقــة التى أدى محبوها الثمن بالمــرة •

انصرف الصياد مسرعا • ينوء تحت حمل سلته •• وما فتىء يلتفت ذات اليمين وذات الشمال • أثار سلوكه حفيظتى • تعجبت من تصرفه المباغت • فطنت الى أنه كان يبغى فضح سر خبىء فى صدره • بدون شك • ولكن فضل حبسه بين شفتيه • قلت بخلدى : هذا بسبب وطأة السن أو ربما هناك خفايا أخرى•

عدت لمكانى • هرشت رأسى • أحسست بخشخشـــات بعثتها عشرات الحشرات الصغيرة الساكنة بثقوب وحفر غائرة بين الاعشاب • تشاغلت برمى الحصيات الصغيرة الى النهر • تتماوج صفحته • وتخدق دوائر تكبر رويدا رويدا ثم تتلاشى نهائيا تطلعت ببصرى بعيدا فى السماء • تركت عيناى تسافران فوق السور • السماء لم تكن زرقاء تماما • تماما • كانت هنـــاك سحب حزينة تزحف متكاملة نحو المجال الجوى لازمور • الفضاء

ينبىء بطقس مضطرب . حلقة تشكيلة من النوارس القادمة من البحر القريب من هنا . باحثة عن بقايا سمك أو خبز . لبثت تخفق باجنحتها فى مجال واحد كأنما تقوم بممارسات تعبدية . تمنيت لو كنت طليقا مثلها ، فاتحرر من قيود الزمان وحدود المكان .

أحكمت أزرار سترتى . مسحت مخاطى الراشح بمنديلى . ورددت التحية على جماعة من الصيادين مروا فى قوارب تعمل بطاقة عضلاتهم . كانوا يرطنون مع بعضهم باللهجة البربرية . ويغنون ويتضاحكون بصوت عال . لوحو الى بايديهم واشاروا بشارة النصر .

من ناحية القنطرة العتيقة اقبل عجوزا آخر . بخطى مستخذية . يرتدى جلبابا صفيا . على رأسه عمامة بيضاء نسبيا . يحمل علبة من الورق المقوى معباة بالخبز المتيبس حتى آخرها . حيانى تحية عربية . طلب منى لفافة تبغ . سحبت من جيب سترتى لفافتين من الصنف الرخيص كنت قد ابتعتهما من بائع السجائر بالمفرد . اعطيته واحدة . أخذها بامتنان . وضع العلبة على الارض الصلدة . اشعل اللفافة . شكرنى . أشعلت اللفافة الاخرى . وصرت انفث فيها همومى . جلس العجوز قبالتى . راح يدخن واجما . وجوم تمثال رومانى . مسح بيده اللعاب المتجلب فى زاويتى فمه الشاحب . ايقظ الدخان كوامن الماضى لديه . فطفق يحدثنى عن حياته المجهوضة المعالم . حديث ذكريات صباه التى أعتراها الخمول والذبول . استمعت اليه باهتمام ظاهر .. على الاقل هكذا كنت ابدو . قال لى انه ابن البلد . وآزمور حبيبته وخفق قلبه . وقال فيما قال : انه قضى فى خدمة جيش الاحتلال الفرنسى احد عشر حولا كاملا .. لم تكل بتقاعد . والان يكتفى بجمع الخبز اليابس .. واحيانا .. يعمل فى المزارع .

كان يحدثنى عن شوقه الجارف لحلاوة أيامه الماضية . بكلمات مسترسلة عبر فمه مثل شلال ماء دافق من بين الصلب والترائب . وحين يشعر بزحمة شجونه الوافرة ، يسكت . ويستنجد بمرارة دخان لفافته . يمصها مصا . ثم يعيد معها مرات على التوالى . بنوع من العصبية . وكأنه شعر فجأة بقساوة انهيار الامانى التى طمع الى تحقيقها فى شبابه .

قال لى أيضا : اتدرى لماذا يحب الناس آزمور .. ؟ لانها مدينة يحميها ولى صالح وتسكنها حور عين .

واضاف بصوت خافت : يبدو انك غريب عن هذه المدينة .. فلماذا جئت اليها ؟

رميت عقب لفافتى فى اتجاه النهر الهادر .. وأجبته :

ــ جئت اتعلم السباحة فى هذا النهر الرافض للموت .

استوى العجوز واقفا . حمل علبته . التفت يمينا ويسارا ربما خشى أن تقع عليه الانظار المتطفلة . وابتعد عبر الضفة المسطحة يروم باب السور .

مرت قوافل كثيرة . وسيارات وحافلات ركاب فوق القنطرة، واتجهت صوب الدار البيضاء وأخرى فى الاتجاه المعاكس الى الجديدة . أحيانا كانت تقف سيارة اعجمى أو جماعة من العجم ، فيبتسمون ببلادة ، ويأخذون صورة سريعة لمدينة راكعة فى حضن اسوار ضخمة نخرتها جحافل الرتيلاء .

مراكب الصيد الصغيرة المهجورة على ضفة النهر توحى بنهاية حرب برتغالية . ومنظر الطيور المعلقة فوقها يوحش الفؤاد .

مع اقتراب الغروب بدأ غطاء الدفء شيئا فشيئا .. فى

المقبل انتشرت نسائم برد معتدل فى الارجاء ، فركت راحتى جيدا . تركتهما تلوذان تحت ابطى . وحانت منى التفاتة ، فاثار انتباهى رجل قبيح الوجه حاد النظرات . يتحدث فى آلة هاتف لا سلكى . كان يراقبنى من منظار مكبر واسع الاطار . ويشير بيده من فوق السور فى اتجاهى . فهمت بأننى المعنى بالاشارة ما دمت الشخص الوحيد الموجود على طول مسافة كبيرة من الضفة .

اعتملت فى داخلى كثير من الشكوك . توجست خيفة . وهمست لى حاستى السادسة بان كل شىء ممكن الوقوع وسهل الحدوث . فقررت أن امشى بعيدا . سرت الهوينا اتخطى الاعشاب المخضوضرة . سمعت وقع خطوات خفيفة ورائى . وأحسست بيد رطبة تقبض على من ذراعى وتجذبنى . برفق . استسلمت . وقفت . كانت هناك امامى : امرأة متوسطة الطول . ذات خصلتين عسجديتين . مخضبة الكفين بالحناء . ترمقنى بنظرة عنيدة ووحشية . متلفعة بعباءة بيضاء تفوح منها رائحة عطر أنثوى مثير للجدل .

قالت لى المرأة بدون مقدمات ، وبنبرة ودودة خانمة :

— أنا مستعدة لاخفيك عندى

اسقط فى يدى . استغربت كلام المرأة المجهولة . تعقدت وتشابكت مسالك ذاكرتى . تهت فى دوامة من التخمينات . خلتها غجرية تائهة . ظننتنى امير بترول فجاءت تحتال على لتسرقنى . وخلتها من بنات العالم الاخر ، لا تعرف فى الوصال حدودا بين الجنى والآدمى فجاءت تسلبنى رجولتى . فقلت لها فى شىء من الارتباك وقد انتابنى كثير من الاحساس بالضيق واللااطمانينة :

— ولماذا ترغبين فى اخفائى ؟ انا لست مجرما ولا يحزنون .. جئت فقــط أتعلــم السبــاحة !

وأردفت بسرعة وبلهجة حاولت أن تطبعها قدر الامكان بالجديــة والصــرامــة :

— جئت تتعلم السباحة فى المياه العكرة ، أليــس كذلــك ؟ لا تحاول أن تلعب معى لعبة البرىء .

وصل استغرابى حينئذ الى ضعف مستواه السابق فقلت :

— اوضحى مرمــاك .. انى لست متفقا فى حل الالغاز .

وتوارى الرجل القبيح ذو المنظار المكبر عن ناظرى . قالت لى المرأة التى تاهبت لمغادرتى :

— منذ لحظة رآك حارس السور وأبلغ بوجودك أسياد هذه المدينة .. انهم لا يحبون الغرباء ، والراغبين فى تعلــم السبــاحــة .

وترامى الى سمعى مزيج من الاصوات الصاخبة المتنافرة الامرة :

— لا تتحرك .. ارفــع يديــك

تخطيت ببصرى المرأة فرأيت لمة من الرجال الغلاظ الشداد مقبلين نحوى . شــاهرين مسدســـاتهم الكاتمة الصوت . والرجل ذو المنظار المكبر يضحك بسخرية وتشفــى .

قالت المرأة بحســرة :

— فات الاوان . .

وجرت مبتعدة :

استجبت لناموس البقاء . وامتثلت لهامس مبهم يدعونى

الحياة . ففزعت الى النهر . ضمتنى مياهه الدافئة . أحتضنتنى . سبحت فيها . غطست بضعة أمتار ثــم أطللت برأسى وأزيــر الرصاص يصفر من كل جانب .. كانوا واقفين على الضفة . عاجزين . ممدى الرؤوس . جاحظى العيون . متلهفين للقبض على كوحوش ضارية تترقب فريسة ضعيفة .. فجأة تحققـت المعجزة التى كانت فى الحسبان .. فاضت مياه النهر . زاغت عن سريرها . استحالت أمواجا صاخبة لاهبة .. أرتفعت فوق السطح أجساد الاغراب الغرقى عن عمد .. ملىء النهر بآلاف السباحين الباحثين عن الحقيقة .. اشتد اندفاع التيار المتفجر .. زحــف نحــو السور المهترىء .. عابرا حواجز الظــلام . . مفتتضــا بكــارة الغبش .

ثورة مدينة الفيران

(اقصوصــة)

العماني عبد السلام

حشرجة فئران صغيرة ، واخرى تتنقل من زاوية الــى اخرى داخل الكوخ الصغير ، متخذة من صدر الطفل النائــم طريقا لها ، اثناء ترحالها وتنقلها ، واحيانا تلثــم فمه وتداعب شعره الطويل تاركـة وحدات متعددة من «برزقها» على جسمه وأرضية الكوخ العاريــة ، استأنس الطفل داخل كوخــه بموسيقي وتنقلات الفــئران ، وشعرت هي نفسها بالامــن والسلامة داخل هذا الكوخ ، شرعت بعدها في تشييد غير انها في هذه الزاويــة وتلك علي احدث طراز ، تؤدى اجمعها الــى تحت ارضية الكوخ ، تحمل اليه سلعها من قطع سكر وخبـز وثوب وورق مطالعــة الطفل وفراخ دجاج المعطى جار الطفل.

الطفل الصغير في نــوم عميق ، ومن تحته مدينــة فئـران في حركة دائبــة ، عملية الاستيــراد والجلب متواصلــة ،

انتعش اقتصاد المدينــة ، توفرت للجميــع حاجاته الاساسية، زاد الدخل القومى ، ميزانها التجارى فى صالحها رغم انهــا تستورد دونما تصديــر ، خصوصا بعدما اكتشفت طريقــا رئيسيا لدكــان ابراهيم ، أتت على ما يملــك من دلــوى واكيــاس دقيق وسكــر ... بعدما صفت الحساب سابقــا مع حانوت «علي» الذى يقع فى الشمــال الغربى من دينتها ، حيث غــادر علي اثرها الدوار معلنا افلاسه . وجدت مختلــف السلع والبضائع ، لياليها الماليــة لا تعرف اى عجز ، بــدأ العمل علي تنفيذ مشاريــع مهمة ، شبكــة غيران دشنــت للتنقل ، رغبة فى زيــارة مختلف الاكواخ والحــوانيت الصغيرة لصلة الرحــم بفــراخ الدجاج فى امن وسلام ، مشروع شبكة التنقل اتــي اكله ، لم تسجل ايــة مخالفات او حادثة سيــر ولم تشــن اى حملة تطهير لانتزاع رخص التنقل .. اللهم الا ما كــان من بعض الاعتقالات الطفيفة تنتهي بالاعدام من طــرف الدركي «ابراهيم» صاحب الحانــوت ، احترم فى المدينة مختلف القوانين والتشريعات ، التى صاغتها فى مواد متعددة ، الليــل معــاشــا والنهــار سباتا ، منع الفئران الصغيرة من العمل حتي لا تحطم قدرتهــم او يعرقل نموهم ، سمح لهم بالبقــاء فى المدينــة وممارسة مختلف الرياضــات خصوصا العــــدو الريفى ، اعدت جوائز مهمة لهذا الغرض قصد التشجيع ، لــم يسمح لهم بالتنقــل الا بعد تدريب من طرف مهندسي الغيــران العمومية ، الالمــام بقانون التنقل واجب ، خصوصا اشــارة تحديد السرعة والانتبــاه علي مقربة من حانوت الدركــــى «ابراهيــم» ، تسلم بعدها رخص التنقل عن جــــدارة دون محسوبية او غش .. احترام تقسيم العمــل بين الفئـــــران الكبيرة ليلا ، اعدت جوائز لحاملي احسن السلع والبضائــع ،

التعويض عن الساعات الاضافية لانشط الفئران ، مساعـدات للحامل والمرضعة ، فى النشـاط الخارجى ، معاهدات سلـم وضعت مع القطط ، سفـراء وديبلوماسيين ارسلوا قصـد التمثيـل لـدى فئران الدواوير المجاورة ، اعداد جيش مسلح من ذوى الاظافـر والانيـاب الطويلـة .

اخيرا حصل ما لم يكـن فى الحسبان ، كان عشـاء بوعزة البارحة سرديلا ، نقلت رؤوسها الى المدينـة ، طائفـة استحوذت عليها ، بعدما تولـت مهام التسيير ، اصبـح التوزيـع غير عـادل اقل الاستيـراد ، اقتصاد المدينة فـى موقف حرج ، ابراهيم اكتشـف طرقا للاعتقال ، تهدد الامـن، فئران عاملـة هاجرت الى الخارج لاحدى الدواوير المجاورة ، زادت البطالة ، صراع طبقي بـدأ ، تحدث الجميع عن الازمة، حللها الولاة ، زعموا ان السبب نموا ديموغرافيا ، طلبوا تحديد النسل عاجلا واتبـاع سياسة التقشف ، خيم على المدينـة جو غير طبيعـي ، بدأ انتـزاع الحق ، اصطدامات متعددة سجلت هنا وهنـاك ، قتلـى وعشرات الجرحى ، تعالى الصراخ فى الافق عبر مختلف الغيران ... لاح ضـوء الصباح ، استيقظ الطفـل ، تأكـد ان جو الفئران غير عـادى ، اعتقـد أن النهار والليـل اصبح معاشا عندها ، ركن الى احدى الزوايـا، تسلم محفظتـه وقطعة خبز يابسـة ، اخذ يداعبها بفمـه وهو فى طريقه الى المدرسـة ،،، درس فى المطالعـة ، جنـة الفئران عنوان القطعة ، لم يتمالـك الطفل نفسه ، اخبـر اصدقاءه بالحـادث اصطحبوه الي الكوخ ، المعارك متواصلة ، بمختلـف الاسلحـة ، اظافر اسنـان ... الصاعقة تأتي من فوق على سكان المدينـة . حيث هوى الجميع على ارضيـة الكوخ بالحفـر ، بعدما التحق بهم ابراهيم ، الطفل الصغيـر اكتشف الحقيقة ، راى رؤوس السردين وقطع خبز وسكر فى

غيران قليلــة ، تأكد انه استغلال . استقرت دمعان علـــى وجنتيـــه ، خرج بعيدا عن الكوخ ، اصدقاؤه من دوله ، جـــال بعينيـــه بين زقاق الاكـــواخ الضيقـــة ، اشـار بيـــده اليسرى الـــى الدوار ، هوى الجميع على الاكواخ ضربا وحرقا !! ؟

العمانـــى عبد السلام

سائـــــع ..

أقصـــوصـــة

عبد الرحيم عاتيق

وانتهت السنة الجامعية ، فجمع حقائبه وتوجه الى محطة الحافلات قصد العودة الى البادية مسقط رأسه وحيث الوالدة والاخوان وبعد ساعات وصلت الحافلة الى البادية ، وكان اليوم يوم سوق وبعد القاء نظرة على هذا السوق حمـل من جديـد حقائبه وتابع سيره صوب سكنى الام والاخوان وعلى بعد امتار شاهده أخوانه فولوا انى الكوخ فى تسابق لاخبار الام بمقـدم اخيهم خرجت حافية الرجلين تعانق ابنهـا وعلامة الفـرح على محياها تحجبها تجاعيد الشيخوخة ، ذبحت الام دجاجة على شرف ابنها العائد من الرباط ، وفى المساء التف الاخوة حوله بعـد أن ادخلوا بعض نعاجهم الى الحضيرة ، وانطلق الاخوان يسألونه .

ــ عدت يـا أخى من الـربـاط ؟

ــ نعـم عدت من الـربـاط .

ــ نجحــت ؟

ــ نعــم نجحــت .

ــ ستحصل على وظيف فى هذه السنة ؟

ــ لازلت لم اكمــل الدراســة

ــ خلاص يا ولدى انى تعبت وكبرت وأريد ان اقضى الايام الباقية من عمرى معــك

ــ أصبرى يا امى ، بعد سنة سوف يكون ذلك .

فى الصباح انتهت الضيافة فقام باكرا وتوجه الى الحقــل لاعانة أخوانه على الحصــاد .

ــ لا زلت يــا اخى تحســن الحصــاد

ــ نعم لا زلت احسن سياقة البووينغ .

فى المساء عاد الى الكوخ واحضرت له الام مــاء ساخنــا ليغسل رجليه ، وبعد تناول خبز شعير وابريق شــاى ، حمــل حصيرا وبعض الغطاء المهلهل وقصد ((الكاعه)) للنوم هربا من جيش البرغوت الذى يكتسح الكوخ ، فهيا فراشه ووضع كومة من التبن تحت رأسه وأشعل مذياعه الصغير الذى أتى به معه من الرباط ، وفى الوقت الذى كان يتالم فيه من لسع البراغيث التى حملها معه فى الفراش كان ينصــت الى برنــامج (مــع المصطفين) وهو برنامج تعده الاذاعة لاجراء مكالمات هاتفية مع المصطافين .

ــ آلو برنامج مع المصطافين ؟

ــ نعــم .

ــ الآنسة بنكران من الدار البيضــاء

ــ أمشــرفيــن

ــ اين قضيت العطلــة ؟

ــ رجعت فى هذه الايام الاخيرة من اسبانيا حيث كنت فى رحلة سيــاحيــة .

ــ كيف هى الطبيعة والحضــارة هنــاك ؟

ــ يا اخى كل شىء هناك فى منتهى الجمال

ــ والآن هل انتهت اسفــارك ؟

ــ لازلت اريد التخييم مع عائلتى على شاطىء السعيدية .

ــ اتمنى لك عطلة سعيدة وشكرا .

ــ آلو . برنامج مع المصطــافيــن

ــ نعــم

ــ السيد التــازى من فــاس

ــ اهلا بكم فى برنــامجكم

ــ واين قضيت عطلتــك ؟

ــ لا زلت لم اقضها ولكنى صممت ان أقضيها بالخارج انا واسرتى

ــ ولماذا لم تنــو قضاءها فى المغرب الذى هو الآخــر بلــد سيــاحــى ؟

ــ نعم ، لكن فى السنوات الماضية تمكنت من زيارة جميــع منــاطق المغرب السياحية وانوى الان التعرف على باقى بلــدان العــالم .

ــ فكــرة حسنــة ، وشكــرا .

وخلال هذه المكالمة الاخيرة انخفض صوت المذياع الــذى اوشكت بطارياته على نهايتهــا ، وسلــم المسكين جســده الى البراغيث التى وجدت فيــه فريسة ثمينــة .

الفقراء أهل من لا أهل له

مســـرحيـــة في ثـــلاثـــة اقســـام

(2)

أحمـــد لمسيـــح

اللوحة الثانية : رفيق يحمل رأسه بين يديه ويوزع منشورا ..

تسلط الانارة في البداية على الجمهور حيث تقوم مجموعة مـــن الممثلين بوضع اقنعة « رفيق » على بعض المتفرجين بينما يتحرك رفيق حاملا « رأسا مدماة » ويرتدي لباسا يخفي رأسه ويقول للجمهـــــــور :

رفيــــــــق : كلكـم متهمون .. حاملون رأسى ، أو باحثون عنه
(تسلط الانارة على الخشبة حيث يجلس الشيخ الكامل على مقعد فاخر ، ويتربع بجانبه الايمن فقيه الكتاب ، وعلى جانبه الايسر شيخ القرية ، وفى المقابل يقف الفلاحون حاملين أدوات فلاحتهم ، ووراء الاكحل يقف العبيد)

شيخ القريـة : (يقف فيتقدم العبيد أمامه وينحنون ثم ينبطحون وفوقهم تنصب شاشة فيكون الظلام وتعرض صور ، عليها ، يعلق :)

ــ مشاريعنا فى المستقبل رفيــق يصلب ويحرق

ــ العمــال مقيــدون بالســلاســل

ــ الفــلاحــون يقبلــون أثر لكحل على الارض

ــ انتــاج كثيــر

ــ احــراق الاكــواخ على اصحــابهــا

ــ نجـــة تتــزوج ابـن الاكحــل

لكحــــــــل : (فى الوقت الذى تتسلط الانارة بقوة عليه) لنبدأ المحاكمة والمـوعظــة الحسنة

الفقيــــــــه : بأمرك واسمك نعلنها خيرا لمن اراد الطاعة

(تدخل رجلان ، كل منهما يحمل لوحة ، واللوحتان نفسهما كانتا بالمشهد السابق ، الفرق هو انعدام صورة سيدى رحال البـودالـى . .)

هــا هــو الملــف .

لكحــــــــل : ولكن أيــن رحــال البـــودالــى

شيــخ القريــة : صدقنى مــولاى .. ما توقعــت فــراره

صــــــــوت : بعثنا رفيقــا وسميـنــاه رحال البودالــى

المــؤلــف : (يدخل مسرعا) ومن أسمائه أيضا رحال ، لقد قلت مـرة اخرى .. بعثناه من اجل ان يكون وليا صالحا وينسى ماضيه ، ويتوب لمولاى الكحل ويدعو له .. لكن

المخـــرج : أعطيته الفرصة ، تصنع له قناعا والجمهور المشاغب يمثه ويسميه ، كان من المقرر ان اتدخل واحكم عليه بالسجن والدخول الى الفرن ويلتهب بالنار أو يحارب السباع . .

صـــــــــوت : لكل روايته .. نحن صنعناه واليوم نعيد صنعه بشكل نرتضيه وأنتم تبحثون له عن صياغة ترضيكم .. وهو اختار الانحياز الينـــا الم يقل : الفقراء أهل من لا أهل له .

جـــــــورج : (يدخل وهو ينفث دخان سيجاره الكوبى)

الاسماء تتعدد والبطل واحد ، مثل اغانيكم ، اللحن واحد والكلمات متنوعة ، أو الكلمات واحدة واللحن يتعدد .. لماذا لم تجعل البطل هو مولاى الكحل .. ها انت تـــرى لعبتـــك الخاسرة .. المغامرة .. تغيير النغمة .. اقبض جيدا على على الريح .. ما احسنتم الاختيار (للمؤلف) لا انـــت ولا المخرج .. اللطف جبن .. انتم الاقويـــاء ولكنكـــم جبنـــاء .. لنحـــاكمـــه غيـــابيـــا ..

لكحـــــــل : ما سمـــك ؟

رفيـــــــق : (من بين الجمهور) رفيق عرفته قديما ورحال أخيرا ، لا أحد يختـــار آسمـــه . .

لكحـــــل : انت متهم بالتزوير ، من أهلك ، وأين يسكنون ؟

رفيـــــــق : (يضع رأسه ــ الرأس المدماة بين يدى أحد المتفرجين ويسير الى الجمهور) ها هم .. فتش بين هؤلاء ، بين عبيدكم .. ها هم .. وطن المظلومين لكل الغرباء حتى تجار الشر

لكحـــــــل : (مستهزئـــا) جبان ، تفر وتختفى ، وهل يختفى الا المنبوذ .. ما أنت الا صعلوك متشرد .. محكوم عليك بالتيه .. هاهؤلاء الذين تنتسب اليهم يطلبون عقابك ، لقد اتيتهم بالمنكر وحرضتهم ضد الدين وحببت لهم الانحراف وشجعتهم على القلق وقلـــت لهم اكتشفوا عن احزانكم وتساءلوا ، والبلاد التى تدعيهـــا بلادا لك لا تأوى المشـــاغبين والمخربين مثلك ولكنهـــا تحـــب الضيوف واللاجئيـــن ..

رفيـــــــق : (يحمل رأســـه ــ الرأس المدمـــاة)

براءة هؤلاء حاصرتنى ثم قادتنى اسيرا اليك .. براءة هؤلاء اعطتك اشرف اخوانهم لتجلدهم .. وما انكرت انهم ابرياء ما دمت قد كلفت الفقيه بتلقيحهم فاطاعوك والشيخ بمعـــاقبتهـــم فانحنـــوا لـــك . .

هؤلاء اخوان لى مهما قسوا ضدى لصالحك .. قادونى اليك عندما باعوا انفسهم لسماسرتك . هؤلاء الذين باركوا قيدى

وحبسي زرعوا مع كل حبة في حقاك أرواحهم ، وحصدوها من اجلـــــك ...

لكحـــــــــل : (مستهزئـــا) أتسترحمهم ؟ (يصمت قليلا)

ألم تكن راعيا للبقر في ضيعة الزاوية أيها الوقح ؟ أتظن أن أهل القرية ارحم بالمجاذيب والدراويش والكفرة من فقهـــاء الـــزاويـــة ؟

رفيـــــــق : ما في الزاوية غير اقنعتك .. كنت راعيا ولم اكن جزارا . لو كنت ترحم مثلي بهائمك البشرية لاستغنيت عن كل المشعوذين وبائعي المضلات الفولانية وما كنت في حاجة الى دار فخمة

لكحـــــــــل : (يقف منفعلا) .. أتحداك أيها الجبان ، لتقدم نفسك .. نحاكمك لنثبت اننا محبون للحرية وكان بامكاننا ان نصدر فيك حكمنا حضرت أم غبت .. اكتف بالدفاع عن نفسك عندمـــا نسمح لك واقتصد في الكلام أيها الثرثار . فقط تقلدني في خطبي لتسرق حب النـــاس لي ولكنك تخطيء عندما تستعمل النفي ولا تقول ان الدنيا بخير .. اترك الخطب لاهلها ما أنت الا مشعوذ فاشل ، ونمام حـــاقد ..

رفيـــــــق : ما حاكم المجرمون يوما مجرما الا في غشه في جرائمـــه ، ويقولون انه مرتد ، ولا طاقة لمتهم بحبه للخير والناس ان يدافع عن أخطائه أمام أعداء الخير الا باتهامهم .

(يلتفت وهو يتحرك بين الجمهور)

منكم من أتى ليراني متألمـــا مستغيثا .. ومنكم من ساعدني على الفرار واخفى جزءا مني في داخله .. أنا هو المجرم .. طردت من الزاوية خارجا من قناع لكحل .. ما جريمتـــي ؟ الجريمة الحقيقية تظل متسترة وراء السيف في هذه القرية ، فـــاكتشفـــوا عنهـــا . .

شيـخ القــرية : (للسيد الكحل) علينا أن نسكت هذا الشرير ، فلن ينطق الصعلوك الا بما تعلمه في صعلكته

رفيـــــــق : (يقترب من الخشبة) المجرم الذي تتهمونه لا يدافع على نفسه ولكنه يعترف للناس بجريمته ، فماذا يمنعكم من الاستماع الى البقيـــة ؟

الفقيـــــــه : هذه علامة الساعة لا ريب فيها ، شيطان لا يحترم لا الدين ولا القانون ، ويتسبب في قتل النفس البريئة ، انه اختفى

كما تختفى الشياطين وانى منكرا ، لقد اخفى روحه الشريرة وهذا حرام فالحكم يجب ان يبدأ بعودته الى الظهور بيننا ثم نفعل ما أمر به الشرع والقانون ولا رحمة الشياطين .

رفيـــــق : الا تروني امامكم ، فتشوا في دواخل هؤلاء تجدونني (يشير الى الجمهور) كل منهم يهرب جزءا مني ، فطاردوني .. انا . عفوا ، نحن نتحرك مع كل دورة دموية وننتصب فلا ترونا انا . عفوا ، نحن ـ هم ، نقشنا حقيقة بعرق هؤلاء ، عفوا ، بعرقنا .. سوطك ابرع رشية شكلت هويتك فينا فلنتامل .. ان هويتك تحدد هويتنا (للشيخ لكحل)

فــلاح : ومــاذا بعــد ؟

لكحــل : (للفلاح) من اذن لك بالكلام ، انخفى انت ايضا جزءا من لســان ذلك المجنون (مستهزئــا)

رفيــق : (يتوجه بالكلام الى الفلاحين) تتوجعون ولا تصرخون .. تتالمون ولا تتساءلون .. اطرحوا الاسئلة .. تساءلوا .. ان الاسئلة هي مبرر وجودكم والاجابة عنها هي معناه .. لقد خلقتم من اجل ان تتساءلوا وتجيبوا . .
تساقون كالقطيع الى الحقول ولا تتساءلون .. عشقت الاسئلة وقامرت بحياتى من اجل الا استسلم للاجابة المفبركة ، غامرت وكنت رحالا من اجل اختيار اجوبتى فلم استعر لسان من يعلموننى للاجابة .. عثرت على مقدمة الاجابة بينكم .. حفاة عراة .. وبدات اركب جملتى المفيدة بمبتدا الدمع الممزوج ..دموعى ودموعكم .. قادنى بعضكم ـ وما قاد الا نفسه ـ قادني الى الشيخ الاكحل .. يجب ان تصارحوا انفسكم ـ وان كنتم تعلمون في صمت ان هذه الارض كانت ملكا لابائكم اغتصبها والده بمساعدة المسيو جورج وأمثاله وتقاسموها ، ورثوا اباءكم وهم احياء .. وكان الشيخ والفقيه مساعدين مخلصين للمسيو جورج والسيد الاكحل الاب ، واخضعا اباءكم .. الا تعلموا .. اصرخوا بالحقيقة فقد حان موعد الكلام بالصوت المــرتفــع

لكحــل : ماذا اصابكم ايها الكلاب ؟ (للفلاحين) ياخذ مذراة ويضرب بها في الهواء .. هيا هيو الملف (يشير الى اللوحتين)..

فــلاح 2 : ربما تحاول قتله .. مصير القاتل القتل ولو كان شيخنــا (مستهزئا) يا شيخنا

لكحـــــل : الشاهدان (تدخل نجمة مع امها)

فـــــلاح 3 : ما قال رفيق ولكن قلنا ، ماقلت ولكن قال ، ماقلت ولكن قالوا لك قل فقلت .. التقينا مع رفيق وشربنا من عرق واحد قبل ان ياتي القرية .. اتفقنا وما بدانا .. ويا عسر ما سترى حيـن نبـدا!

لكحـــــل : (يرمى المدراة ويجيل بصره يمينا وشمالا)

مـــاذا اصابكم .. هل انتشر بينكم الكفر والعصيان .. مجانين .. لا شك ان الواحد منكم اصبح يخفي رفيقا عنـــى بداخله .. تحملونه ولا اراه .. يا ويل الكلاب المارقة منى.

فـــــلاح 4 : رفيق برىء واذا كان متهما فنحن لا نتدرا من اننا ايضا متهمون

امراة من بين الجمهور : (تزغرد) ..

ام نجمـــــة : ما نطق رفيق من الهوى ولكن حبه انطقه ، نحن ننطق من داخله وما نطقنا الا وهو يحاورنا من دواخلنا ..

لكحـــــل : (بخبث) انت ابنها ((المربوة)) ابنتها الطعام البائت تملئين ما في دواخلك انت ايضا تعيرين جلدك لرفيق .. او تجهليـــن لقاءاته مع بنتك .. ام كنت تعرضين عليه شراءها .. لقد لقد دفع ثمنها خطابا وغاب .. غاب لانه ليـــس رجـــلا .. يا شهرزاد الارملة .

ام نجمـــــة : ما فينـــا احد لا يقول مع نفسه انك جورج لكنه بجلبـــــاب وعمامة .. ما فينا احد يقول مع نفسه انك قواد جورج .. يا شريـــف النسب (باستهـــزاء)

لكحـــــل : (منفعلا) انسيت ما اصاب زوجك عندما تمرد على ؟

ام نجمـــــة : (تشهق ، ملتفتة الى الجمهـــور ..)

مـــا شككت يومـــا انك قاتله والمترحم عليـــه ..

(تلتفت الى الفلاحين) اسمعتم القاتل بجريمته يعترف

(تلتفت الى الفلاحين) اسمعتم القاتل يعترف بجريمته فـــى ساعة غضبه .. ها هو يفضح نفسه .. ها هو قاتل زوجى (أصوات متداخلة ، حركات غير منتظمة)

الفقيـــــــه : اقبضوا على هذه المراة التى تهدد سيدكم زورا (ينادى احد الخـــدم بصوت مضطرب) جروها الى غرفة مظلمـــة ..

خـــــــــــادم : الخبز والمأوى ، لم يساويا أبدا ثمن اغلالنا .. ما عاهدنا انفسنا أن نكون عبيدا ولكن كانت لنا اقنعة العبودية .. لن نخسر سوى أغلالنا ، لن نخسر سوى اقنعتنا ، فلنكشف عن احقادنا (ينزع الجلباب ويرميها أمام الشيخ الاكحل)

« نريد خبــزا نريــد كــرامــة

نــريــد خبــزا نــريــد كــرامــة »

(الخدم يفعلون مثله وينسحبون نحو الفلاحين ، في هذه اللحظة يتوجه الفقيه وشيخ القرية ويجلسان الاكحل ..

فـــــــلاح 4 : ما أظن الشرف لا زال يقاس بالاموال يا شيخنا (مستهزئا) (أصوات متداخلة عفوية)

ممثـــــــــل 1 : « هلموا نغــادر المكـــــان

ممثـــــــــل 2 : يجب أن نتفق على خطة للعمل

ممثـــــــــل 4 : لقد فاجأتمونا ، مـــالكم لم تخبــرونـــا على ... »

رفيـــــــــق : (يصعد الى الخشبة ويضع الرأس المدماة كأنها رأسه) هذه بداية فقط ، وما وقفنا سوى في شطر من الامتحان ، لنكن حذرين جدا (ينسحب لكحل وجورج وشيخ القرية والفقيه).

أم نجمـــــــــة : لنرفع شكاية ضد لكحل ونفضحه ونفضـــح شيـــخ القريـــة ونفتهاتها . .

رفيـــــــــق : ما موت زوجك سوى حرف في كتاب أسود حروفه رمادية .. ما أظن الوحوش تنهش بعضها . .

المــؤلـــــــف : (يدخل ووراءه المخرج) ما كتبت هذا .. احرفت النص ؟ (للمخـــــرج)

رفيـــــــــق : تكتبون باختيار لكحل ونحن نصحح ، ما فعلنا غير نسق لغتكم واعادتنا كتابتها بوضع سليم لقد قرأنا بعيوننا ، بعيون الفقراء وانتم كتبتم بعيون السيد الكحل ..

المخـــــــرج : فقط كنت احاول ان اجعل لهذه الخشبة حرمتها وان يبقى ما هو دونها تابع لها ، لكن الاجلاف دنسوها ، فهل تعرف الحمر معنى سكين الجبيـــر .

رفيـــــــــق : أكثرتم من الحديث عن الحرمات وان القاعة لا تنفصل فيها هذه الخشبة عما دونها ، وما كنتم الا مصيرين على توزيعها،

توزيع التركة التى خلفها ال جورج . .

المؤلـــــف : (للمخرج) اظن ان الوقت وقت استراحة

رفيــــــق : لا اظن الجمهور ما زال يطمئن لطبخاتكم فى الكواليس ، ولا اظنه طلب استراحة .. (يلتفت الى الممثلين) هذا وقت الاسئلـة . .

(ينزل الممثلون ويتحاورون مع الجمهور)

ممثـــــل 1 : ماذا ستفعل ؟

ممثـــــل 2 : اقترح علينـا شيئـا مـا ؟

ممثـــــل 3 : كيف تـرى ان تتهم المسـرحيـة ؟

ممثـــــل 4 : مـاذا تعمـل فى شـان لكحـل ؟

(وليرتجل الممثلون الاسئلـة والاجـوبـة . .)
(ثـم تظلـم الخشبـة وتضـاء القـاعة)

القســـــم الثـالـث

قراءة تخريبية للاروح المتمردة (*)

اللـوحـة الاولى : حصـاد السيـف والعمامة

اللـوحـة الثـانيـة : عـرس بلـون المـوتـى

اللـوحـة الثـالثـة : الشهـداء يتدخلون ويحاكمون القضـاة

اللـوحـة الاولـى :

حصـاد السيـف والعمـامة

المنظـــــر : « قاعة فخمة يتربع فى وسطها — على اريكة — جورج بزى عسكرى يحيط به اشراف القبيلة — وفى طليعتهم لكحل وشيخ

(*) الارواح المتمردة : مجموعة « قصص » لجبران خليل جبران

القبيلة والفقيه ــ وفي الجانبين يقف الفلاحون مجردين مــن ادواتهــم »

جـــــــورج : (يقف .. يتأمل الحاضرين ..)

أرف الاربية (أعرف العربية) اكثر مما تارفونها (تعرفونها) أنتم ربما تنتظرون مني كطابا (خطابا) آكر (آخر) (الى مولاى لكحل) : لماذا لم تكبرنا (تخبرنا) بانحساس تلك الجرثومة بينكم ، وتسرب رفيك الى الكرية (رفيق الى القرية) .. ثم لماذا لم تطلب الاون (العون) من الدرك والجيش لايكاف (لايقاف) جنون الفلاهين (الفلاحين).. (يعود الى الجلوس ويشعل سيجارة)

لكحــــــــل : « شالوم أولا » .. لم اكن أتصور ان الامر سيتطور بمثل تلك الخطورة ، لم اكن اتوقع ذلك الجنون .. صدقني يا سيد جورج

جــــــورج : والنتيجة ؟ راس الافعى نجا ، أين رفيق .. أين المشاغبين ؟ (يشير بيــده نحــو جنــديين) ليحضر المجرمون أمامي واحدا واحــدا . .

حاضر ، أمرك (ينصرفان ثم يعودان بشاب موثوق اليدين ..)

جـــــــورج : مــا جريمــة الكلــب ؟

شيــخ القرية : مجرم ، قاتل ، اعترض قائدا من قوادك يا مولاى وقتله ، لقد قبض عليه بين الحقول ، والخنجر مــا يزال في يده .

جــــــورج : (للمخزنيين الماسكين بالشاب الموثوق)

يعاد الكلب الى الظلمة وليثقل جسده بالقيود وعندما يجيء فجر الغد يضرب عنقه وترمى جثته مفصولة عن رأسه

المخــزنيــان : (بعد تحية عسكرية) حاضر ، أمرك (ينصرفان ثم يعودان بامرأة مصفرة الوجه ، عارية الراس ، ممزقة الثياب ، على وجهها أثر من الضــرب ..)

جـــــــورج : ماذا فعلت الخنزيرة ؟ هل انتقلت عدوى الجنون الى النساء أيضــــا ؟

شيخ القريــة : عاهرة .. حمت رفيقا واخفته ومهدت له الاتصال مع الفلاحين يــا مسولاى ..

جـــــــورج : (للفقيه) ماذا يقول الدين في مثل هذه الزانية الملعونة ؟

الفقيـــــه : ترجم بالحجارة حتـى المـوت . .

جـــــورج : للمخزنيين) عودا بها الى الظلمة ومدداها على فراش مـن الشوك واسقياها الملح فى الماء ، وعندما يجيء الفجر تجـر عارية الى خارج المدينة وترجم بالحجارة ، ثم تترك للذئـاب والغـربـان . .

المخـزنيـان : (يحييانه تحية عسكرية) حاضر ، أمرك (ينصرفـان ثـم يعودان بكهل نحيف ، يجرر ركبتيه المرتعشتين ، نصف عار)

جـــــورج : ما اثم الحمار الهرم ، الى أى مدى استطاعت هذه الجثة الهاربة من القبر أن تتحدانا ؟

شيخ القـريه : لص ، سارق ، دخل الضريح وسرق منه الشموع والنقود والغطاء . .

جـــــورج : كبلاه بالحديد ، وعند مجيء الفجر جراه الى شجرة عاليـة واشنقاه بحبل متين (يلتفت الى الفقيه) واذا كان هناك حكم فليضـف الى مـا قلتـه .

الفقيــــــه : لا تعرض فيما قلته مع حكم الشـريعـه

المخـزنيـان : (يحييانه تحية عسكرية) حاضر ، امرك (ينصرفان)

جـــــورج : (واهما) اما الذين أساؤوا الى السيد لكحل وعصوا اوامره فاجلدوهم (الى الجنود) نفذوا الحكم فى المجرمين امامهم ، فان عادوا الى الطاعة فسرحوهم ، وان لم يعودوا الـى وحيهم فارموهم بالرصاص (يصمت قليلا) اذا عاد رفيـق يسمم القرية اوثقوه ثم اقلعوا عينيه واقطعوا لسانه وكسروا يديه ورجليه واشرحوا جسده وضعوا الملح فى جروحه ودعوه هكذا امام الناس ليكون عبرة للاخرين (بعد صمت وبعصبيه نغلفها بسمة باردة مندهشه) ما رأيكم أن ينفذ ذلك اقـرب الناس اليه ، لماذا لا تكون اسرائيين ، اظن انه كان يقول كلاما يشبه هذه الحماقات فليساهم الناس جميعهم فى تعذيبه (وهو يهم بالانصراف) اتمنى ان اعود وانا فى عرس

(يتبعه الاشراف والسيد لكحل وشيخ القرية وفقيهها الذى يرفع يديه صارخا ..)

الفقيـــــه : مسبب الفتنة شيطان ، خارج عن الجماعة شيطان .. مـن أراد تغيير ما خلق الله يتنبأ بالغيب .. شيطان .. شيطان

.. شيطان .. من يسأل عن الاشيـــاء البـــاطنة شيطان .. شيطـــان .. شيطـــان ..

(تخلى القاعة الا من المخزنيين الواقفين وتختفى الانارة بتدريج على انيـــن وصراخ المسجـــونين)

اللـــوحـــة الثـــانيـــة :

عـــرس بلـــون المـــوتـــى

على الشاشة : (ساحة خالية .. شجرة منفردة عليها الكهل المشنوق .. قرب الشجرة جسد مفصول عن الراس .. بعيد — بعـض الشيء — فى الجهة الاخرى جسد عار — لامرأة — ملطـخ بالدماء وفوقه ، وحوله حجارة .. حائط كتبت عليه بعـض الشعارات عليه اسندت ثلاثة اجساد بشكل ملتوى ومتشابك وقد غطاها الـدم ..

بعد برهة من التركيز على المشهد المذكور .. يبدو رفيق فـى حالة عياء تام .. يتأمل باندهاش . يقلب بصره بين الشجرة وما حولها .. بين الحائط وما حوله .. يصرخ ..)

رفيـــــق : مـــاذنب هؤلاء .. كافرون .. كافرون لانهم فقراء .. عصاة لانهم بسطاء (منتحبا) يحبون فى بساطة .. يكرهـــون فى بساطة .. ويلعنون عند الغضب بكل بساطة (يستند الـى الشجرة) اصبحت كثكلى فى سن لا تلد فيه .. فى زمن تصعب فيه الولادة على المنجبات وبالاحرى العاقرات .. هؤلاء اهلى وانا اليتيم .. هؤلاء اهلى وانا اليتيم .. الطريق الى المشنقة قصير = الطريق الى نفيها طويل وعسير .. هؤلاء اهلى وانا اليتيم هؤلاء اهلى ..

(خطوات تقترب منه فيلتفت بعصبية نحو مصدر الخطوات فاذا بفتاة تقترب بحذر من الجثث .. تصرخ وهى تركع بجانب الراس المقطوع تنتحب .. تاخذ الراس ثم تضعه بين كتفـى الجثة وتغطيها ، يتقدم رفيق نحوها .. تصرخ فى فزع ..)

عـــــــائدة : اشكى الى سيدك عباس او الى سيدكم جورج .. قل للجميع

اشـــارة : يجب أن يستمر جورج فى حواره بالطريقة التى بدأ بها

أن عايدة فعلت ما رأيته .. قل لأجيع : خير لي أن أموت والحق بمن خلصني من العار ومات ..

رفيـــــــق : (يقترب اكثر) لا تخافي يا عايدة .. سامحيني الا اعزيك

عـــــايـدة : قتلوه لانه انسان .. قتلوه .. قتلة .. مجرمون (تنتحب)

رفـــــــق : لم افهــــم ..

عــــايـدة : (وهي تشهق) كانت له علاقة على ما اعلم مع رفيق الذي اتى القرية ثم اختفى (سنما هي تروي بمر ما تحكيــه علــى الشاشة) في يوم جاء نائب حوريج الى الحقول ليفرض علينا العمل قهرا اثناء جمع الغلة (تنتحب) اراد ان يغتصبني فصرخت واذا بخطيبي ياتي .. خلصني منه فغضب السيد النائب وصفعه (تنحنى على الجثة) طعنه خطيبي بالخنجر ولم يفر .. لــم يختف .. ظل واقفا وبيده الخنجر الى أن قادوه مكبلا و..

(تبدو على الشاشة وهي تبكي وتصرخ ..) قتلوه .. قتلوه..

رفيـــــــق : (وهو يجلس بقرب الشجــرة)

هذا زمن تحل فيه المشاكل بالقتل .. قاتل أو مقتــول ولــو بالتقسيـــط ..

علــى الخشبة : حفلة زفاف .. قاعة مزدانة بالورد .. شكليات مقززة .. النساء في أبهة مبالغة .. الرجال ايضا .. في الوسط جوق شعبي للشيخات .. غناء مرتجل .. رقص مغرى ..

المنــــــادى : (بين الجمهور .. والغناء والرقص مستمران ..)

هل تذكرون ولدا مر من هنا — كان ولدا عربيا — قيل عنه يمتهن الغربة — كان يسال عن امه ولا تجيب — يا جنود زمن الرهان — يا تماثيل تتنفس من السؤال — في الجناح الاخر اشباحكم تركب خيولا تقتات من لحمها — يحيي علما رافعه مشلول — ماق اغمانكم غير الصدا هل تذكرون صندوقا مقفلا حملتموه لطاحونة بشرية

هل تذكرون صندوقا اسود لسلمتموه لانسان ما قبل الانسان في الصندوق دفتر ممزق الغلاف (ينتقل صامتا)

هل تذكرون ولدا مر من هنا — كان ولدا عربيا — قيل عنه يمتهن الغربة — كان يسالنا عن امه ولا تجيب — امه فاتحة

الكتاب وخاتمته — هل تذكرون ؟ كان يلبس أوراقا ممزق غلافها — عليها بقع حمراء — كانت على ظهره صورة رمادية — وسط الصورة دائرة حمراء اخترقها سهم عربي — سقط الولد أوراقا ممزقة عليها بقع حمراء — والعسس تماثيل تتنفس من التساؤل حول الصندوق ..

هل تذكرون ولدا مر من هنا — كان ولدا عربيا — قيل عنه يمتهن الغربة — كان يسألنا عن أمه ولا نجيب — كان يحمل نخلة صغيرة — زرعها وحيدة في الرمل محاصرة بالقيظ والفلاة — كان يرقد أسفلها في العراء — التهب النفط بالحب الدولاري المقدس في جذورها — احترقت وكان يعانقها — سقطت وكان مصلوبا عليها كتاريخ باهت في يومية منسية — هل تذكرون يومه الأخير بيننا — كان يسمى أمه : فلسطين ، وكنا نردد : عربية (بعض الممثلين بين الجمهور يرددون معه) عربية .. عربية ..
هل تذكرون ؟ — كان يحمل طائرا أخضر — يطعمه في شقوق جرحه — كانت واحدة دورتها الدموية (بعض الممثلين بين الجمهور يرددون معه) كانت واحدة دورتها الدموية .. — اختطف الطائر غراب وكانت العشيرة ترسم بدم الاغتصاب نسرا — كان النسر صنما بتروليا في الراية العربية (الممثلون بين الجمهور يرددون) كان النسر صنما بتروليا في الراية العربية .. هل تذكرون ؟ — كنا نتهجى حروف المطر :

« ما عاش الطائر بدون ولد

ما عاش الولد بدون طائر

كانت واحدة دورتهما الدموية »

(الممثلون بين الجمهور يرددون المقطع الأخير)

أنبئكم :

خط في ساعده جرحا يمتد به الى قلب الطائر — اختلط دمه في الصحراء بين الرمل والحب الدولاري — وكان النسر صنما بتروليا في الراية القبلية يوزع على العشيرة دم الولد بعدل وديمقراطية — يغريه النزيف فيصدق أنه يخرج من الرايات القبلية توزع على القبائل دم الولد باسم العروبة (مع الممثلين بين الجمهور عدة مرات)
هل تذكرون ولدا عربيا مر من هنا قيل عنه يمتهن الغربة كان يسمى أمه فلسطين وكنا نردد : عربية .. عربية

على الشاشة : (شاب منهمك فى تغطية جسد المرأة المرجومة .. رفيق يقترب منه)

رفيـــــــــق : كيف تغامر بحياتك لتحمى جسد هذه المرأة ؟

عـــــــارف : أنا عارف .. هل تتجسس على ؟ (بعد صمت قليل يعود الى الكلام بصوت باك) أحب ذلك الرجل الذى رجعت من أجله .. جئت وفاء لعهد بيني وبين اخوتي لاغطي جسدها ..

رفيـــــــــق : من هى ؟ من هو الرجل ؟ عمن تتحدث يا عارف ؟

عـــــــارف : أم نجمة ورفيق

رفيـــــــــق : قتلة مجرمـــون

على الخشبة : (العروس تدخلها مجموعة من النساء وبجلسنها قرب العريس الذى يقوم ليقبل يدها ثم يشرع فى توزيـــع الحلـــوى علـــى الحاضرين .. زغاريد .. هتافات .. الشيخات يشرعن فـــى رقص يغلب عليه طابع الاثارة ..)

علـــى الشـــاشـة : (امرأة نحيفة ترتدى خرقا بالية ممزقة ، تقف قرب الكهل المشنوق قارعة صدرها ، باكية تتسلق الشجرة وتفك حبـــال المشنقة بيديها مستعملة أسنانها أحيانا .. تسقط الجثة تنزل المرأة.. تغطى الجثة بثوب أبيض.. يتقدم رفيق نحوها فتصرخ)

فـــاطـمـــة : انه زوجي ، لمـــاذا تتجسس على ؟

رفيـــــــــق : اتتمنى يا امرأة .. لا تنزعجى أيتها الوالدة .. اسمحى لى بأن اتقدم بعزائى لك ..

فـــاطـمـــة : انه أب لخمسة أطفال .. لم يكن لصا ، لقد كان محافظـــا للضريح يوم كان قويا .. وعندما شاخ طردوه فلم يجد عملا ، ووعدوه بأن ينتظر حتى يكبر أحد الاولاد فيسلمه لهم ليأخـــذ مكانه .. فاستعطفهم فلم يرحموه . ذهب الى المدينة فلم يحصل على عمل .. لجأ الى التسول فلم يساعده أحد لانه لا يمتعهم ولا يسليهم .. وفى ليلة لم نجد ما ناكله ذهب الى الضريح فأخذ الشموع وبعض الدقيق .. اكتشفوه فقبضوا عليه .. ثم (تهرول صارخة) شنقوه .. شنقوه

على الخشبـــة : (الصخب والرقص والغناء .. يوزع الخمر بدون انتظام .. العروس تذرف الدموع .. الكل غافل عنها يتنازع رجلان فى حالة سكر يدخل رفيق فى هذه اللحظة .. تحنى العروس رأسها بينما يجلس هو ويرفع عينيه الى السقف .. العروس هى نجمة)

نجمـــــــة : (تشير الى امرأة ــ فى الوقت الذى ما زال فيه الناس يهذئون

الجو ويسكتون من يصرخ ـ وتطلب منها أن تقترب .. تقترب المرأة فى حذر .. تهمس فى اذنها) سيرى .. اسرعى

المـــــــــراة : (تتوجه نحو رفيق .. تهمس فى اذنه .. يقف رفيق . . نصرخ ..) ها ها .. ها

(تقـف نجمـة) هـــا .. هــا .. هــا

(ظـــــلام تـــــام)

اللــوحــة الثــالثــة :

الشهداء يتدخلون ويحاكمون القضاة

(يبدو رفيق منعزلا وسط الخشبة ، تسلط عليه بقعة ضوئية كأنها تحاصره .. يتحرك فى الاتجاهات الاربع ولكـن ضمـن الدائرة الضوئية .. موسيقى مستعجلة .. أصوات من الكواليس تسأل ـ وبشكل تحريضى ـ رفيقا .. يتـأمل الجمهـور فى استعطاف .. يتأمل السقف ويتأمل البقعة الضوئيـة التـى تحاصره .. يمر شرطى ويلصـق على وجهه ملصقا كتب فيه : « الحلم ممنوع فى واضحة النهار » يتعثر بسبب عدم رؤيتـه واصطدامه بالشرطى فيسقط .)

على الشـــاشـة : تتلاحق المشاهد على الشكل التالى :

1 ـ رفيق منعزل يدور حول نفســه

2 ـ بدل عرض مشهد الناس يتجهون نحوه تعرض الصور عكسية الى الوراء من نهاية اللقطة الى بدايتها وبسرعة تقترب من البهلوانية .

3 ـ الالتجاء الى مكان الجثث .. رفيق يبكى بين الجثث .. تنهض وتتجه وراءه (بتثاقل)

4 ـ اللقاء بنجمة ، امها تعانقها ـ جيش لكحل يفاجىء الجماعة

5 ـ قتال بين الطرفين ينتهى بسقوط رفيق وانهزام جنود لكحل

6 ـ فوق جثته يمر الباقون ويتجهون نحو لكحل وجماعته تحمل أسلحة جنوده المنهزمين

7 ـ الشهداء العائدون الى الحياة يحاكمون لكحل ومن يحيط بــه

8 ــ نجمة تقف على جثة رفيق التى تتململ (يبدء الحــوار التــالى)

نجمـــــــة : لا تقاطعنى .. اسمع اعترافى .. فرض على قهرا ابن لكحل لماذا تتخلى على الان .. بكيت بين الجثث فبعث الشهداء ولماذا ابكى انا ولا تحى يا رفيق .. احبك يا رفيق .. قتلوا الكثير من اصدقائك

الصــــــــوت : احيينــاك فقتلنـــاك
وان نسينــاك قتلنــاك ثانيــة
انهض فالبيضاء الحمقاء تشق قميصها ــ تمد يدها اليك
انهــض فالعواصم العربية عــرائس قبور اهلك
والغــول انتشرت اظــافــره
انهــض فقد نصبت الدمى شاهات على الجراح

نجمـــــــة : انهـــض . .
رفاقك حزانى ــ رحلت دون وداع
انسج من لحمك حبلا ــ مزق كفنك، واجعل من ريح بلادك شراع

الصــــــــوت : انهـــض . .
هذا وصــت ضـــابــع ابيــه عبر جرحك
وطنـــك يابيـــك مجبـلا بعيسود الامريكــان
محمـــولا علـــى اكتـــاف الفقـــراء

نجمـــــــه : دمك ادانـــة لزمـــن الخلفـــاء

الصــــــــوت : دمــك ادانــة لزمــن الخلفـــاء

نجمـــــــة : يا زمن . خذ كل تيجان الدنيا واعد لى عمر
مثل الاسماء الجميلة ــ الاسماء البطله على راسها عمر

أبــو نجمة : (يفاجئها) الم اقل لك بان الشهداء لا يحملون اسماء .. الشهداء لا اسماء لهم ولا زمان .. لا اسم لهم غير عمر .. عمر اســم لكــل الشهــداء

نجمـــــــة : كان رفيق اسمه حيا وبموته اصبح عمر اسمه .. وانت ايضا عمر (ينسحب أبوها)

رفيــــــــق : يتململ .. يقف متراخيــاً)

تعشقين الشهداء وأعماك العشق أن تكوني شهيدة .. هــل أعجبك الزواج بابن السيد .. مر من مر فوق الجثث لينصب المشانق في دار لكحل ويحاكم أهل المظلم وانت تعبرين فــوق جثتنا لتتزوجي أبن لكحل وتكتفين بالبكاء علينا (يصمت قليلا) قرنت اسمك بهذه الارض .. احببتكما حبا متعانقا .. ولكن ..

نجمـــــــة : (تقاطعه) ولكن ماذا يا عمر .. يــا رفيق ؟

رفيــــــــق : شهيدا ساهجرك ولكن لن أهجر القرية الذبيحة المكبلة بسوط لكحل وردتك .. شهيدا ساهجرك الى وطن الشهداء الاحياء اني برىء ممن يتاجرون بالاموات .. الاموات أيضا يتجمعون ويختارون صف الاحياء الذين يسيرون نحوهم .. اني برىء الا من الابرياء وليت الزمن كان بريئا

نجمـــــــة : غفرانــك فقد أجبــرت ..

رفيــــــــق : لم اعد لك وحدك .. من استشهد فقد أمه الشهداء الاحياء عودى الى عريسك هل أدركت الفرق .. الكوخ بشع والقصر جنة .. أنت خائنة منذ أن هادنت .. خائنة .. سماحي لايزيل ذرة من غضب الفقراء .. لفظتك القرية .. لفظتك خائنة ..

نجمـــــــة : (تقترب منه باكية) لا تبعدني عنك .. لا تتهمني بالخيانة .. انت تحبني تحبني .. لا زلت تحبني وأنا أيضا أحبك (تعانقه)

رفيــــــــق : خائنة مرتين .. أيتها المرتدة الحزينة (يبعدها)

أنت تلبسين جلدا آخر غير نجمة (صارخا) أنت تحملين أنثى اخرى بداخلك .. فستدمري ، وتدوني نجمه يا نجمه .. وتدوني نجمه يا نجمه (باكيا) ستدمري ..

نجمـــــــة : (تخرج السكين وتلوح به) .. من لك غيري (تصرخ) من لك غيــري ؟

رفيــــــــق : الــى أهلــي

نجمـــــــة : لا اهــل لــك

رفيــــــــق : الفقراء أهل لمن لا أهل له (تمد نجمة يدها لتطعنه)

علــى الخشبــة : (رفيق واقفا ونجمة تقترب منه)

رفيـــــــق : أيتها المرتدة الحزينة .. يا من تلبس جلداً آخر غير جلد نجمة .. يا من تحمل أنثى أخرى بداخلك .. فلتتدمرى ، ولتكونى نجمة يا نجمة

نجمـــــــة : (تخرج السكين وتلوح به صارخة) من لك غيرى ؟

رفيـــــــق : الـــى اهلـــى

نجمـــــــة : لا اهــل لـــك

رفيـــــــق : الفقراء اهل لمن لا اهل له .. الفقراء اهل لمن لا اهل له

نجمـــــــة : (تمد يدها وتطعنه) كنت سأقتل به العريس (تبكى)

رفيـــــــق : الم اقل لك خائنة .. اذا احببتنى فاتركى قصره حتى وأنت فى قصره .. ان الشهداء يحاصرون القصر (يسقط)

نجمـــــــة : (تمدده ، تقبله ، تصرخ) تعالوا أيها الناس .. ها هو وها هو العريس .. ها هى أسرار الموت والحب (المحتفلون يتوجهون نحوها) لا تخافوا أيها الجبناء .. ها هو رفيق لقد قتلته لاننى احبه (تطعن نفسها .. تصرخ النساء .. يحاول البعض الاقتراب منها تتمتم) لا تقتربوا .. لا تحاولوا الفصل الفصل بين جسدينا .. دعوا الارض تضمنا جسداً واحـــداً (تلقى بصدرها على صدر رفيـــق)

فقيه القــرية : (فى يده سبحة) ملعونة هى الايدى التى تمتد الى هذيـــن الجسدين الملطخين بدماء العار والجريمة .. ملعونة هى الاعين التى تبكى بدموع الحزن على الابالسة .. تفرقوا .. تفرقوا .. نهـــايـــة كـــافــرة لنفـــوس كـــافرة

(فى هذه اللحظة يبدو كل من المخرج والمؤلف يتقدمان نحـــو الجثتيـــن)

المخــــــرج : (للمؤلف) بامكاننا الان أن نمثل مرتـــاحين .. وأن نعيـــش مرتـــاحـــين

المــــــرأة : يا محترفى الخداع ، تعيدان نفس المسرحية بحبائل جديدة .. خدعتمـــا الضحيتيـــن

المـــؤلـــف : أهذه هى المرأة التى كانت شبه مجنونة لماذا لم تتخلص منها (للمخرج) .. كيف تتغاضى عنوجودها .. ليس لها دور وتسمح لها بالتجول فوق الخشبة

المخــــــرج : كانت في طريق الجنون .. بهلولة .. ولم احسب لها اى حساب ولكن لماذا لا نفكر في ترويضها ، قد تؤدى احسن الادوار

المـــــــــراة : تخلصتما من (العاقل) فكيف ستتخلصان من (المجنون)

فقيـه القرية : (للناس) تفرقوا .. تفرقوا دعوا هذا المكان ففيه ابليس ينجس وينشر سمومه .. تفرقوا اتركوا هذا المكان النجس.. يــا رب خــذنــا في الضــوء ..

المــــــراة : (تقترب من الفقيه) انا ابقى هنا . احرسهما .. احفر لهما قبرا اذا منعتموني أمزق صدر الارض باصابعي واذا قيدتموني احفر باسناني وأبكي عليهما ليصبحا نخلتين تمتد جذورهما وتقتلع جـذور لكحـل ..

(الناس ينسحبـون .. يبقى المؤلف والمخرج والمراة)

المخــــــرج : (للمراة) ماذا سنفعل بهذه المجنونة ؟

المـــــــراة : اتعتقد ان المسرحية لا زالت تسير كما اعتقدت

(تاخذ السكين من يد نجمة ، يضطرب المخرج والمؤلف .. يحاولان الفرار.. أصوات مخيفة.. موسيقى غامضة) والان ؟!

رفيــــــــق : (تتحــرك جثتــه .. يتمتم)

لا زلت لم انته .. لم أمت بعد (يرفع يده اليمنى فتمنحه المراة السكين .. يحاول الوقوف)

المـــــــراة : حان وقت القيء .. حان وقت الولادة .. ولدت ولدا ولكنه افترش دمه واصبح طائرا اخضر من طيور الجنة ، وفي ليلة عنيفة عاد الى بطني .. كان اسمه المهدى ، ومن اسمــائه العــربــى (المخرج والمؤلف يحاولان الفرار)

المـؤلـــــف : اين المفــــر ؟

المخــــــرج : اسرع لننجـو بانفسنـــا

(يفاجئهما الفلاحون حاملين أدواتهم وفي المقدمة الشهداء)

ابو نجمــــــة : (للمخرج) يا قاتلي .. يا سيدا فيما مضى .. يالكحل

ام نجمــــــة : (للمؤلف) يا مفتي زمن الذبح .. يا مسيو جورج

الفـــلاحــون : « سقطت الاقنعة من الوجوه الغــــادرة

وحقيقــة الشيطـــان بـــاتت سافــرة »

ام وابو نجمة : (للجمهور) ها قد كشفناهما فحاكموهما ..

(المخرج والمؤلف يتراجعان فى ارتباك محاولين عبور الخشبة نحــو الجمهــور)

رفيـــــق : (يقف) كنتم تمثلون وكنا نمثل .. كنتم تخربون وكنا نخرب ولكننــا اكثريــة ..

الممثلون بين الجمهور : (يقفون ويشكلون مظاهرة معترضين طريق المخرج والمؤلف ويرتجلون شعارات يرددونهــا ..)

ستـــار النهـــايـة